حدث في رمضان

الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

دار الأدب الإسلامي

حدث في رمضان

جميع الحقوق محفوظة

(الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ • ١٩٩٦ م)

إن حقوق التأليف والنشر محفوظة لورثة المؤلف فقط دون سواهم ،
ولا يجوز إعادة طبع هذا الكتاب كلياً أو جزئياً أو خزنه في أي نظام لخزن المعلومات واسترجاعها
أو نقله على أي هيئة أو بأية وسيلة ، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو استنساخاً أو تسجيلاً ،
أو الترجمة لأي لغة أخرى ، أو تحويله إلى عمل إذاعي أو مرئي ، أو غيرهما ،
إلا بإذن كتابي من أصحاب الحق الشرعي ...
ويمكن استخدام الكتاب كوحدة متكاملة وبإسم مؤلفه كمرجع دراسي ،
كما يمكن الاقتباس منه وذكره كمرجع .
(ودار الأدب الإسلامي) بصفتها المخول الوحيد عن ورثة المؤلف بطباعة ونشر وتوزيع كتب
الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا ـ رحمه الله ـ تحذر من التعامل بأي طبعة غير مشروعة .

الفهرسة في النشر

رقم الإيداع ٧٨٢٨ / ٩٦

الإعداد الفني والجمع التصويري بدار الأدب الإسلامي
المراجعة اللغوية الأستاذ رزق هيبة

دار الأدب الإسلامي للنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

ليماسول ـ ص.ب : ٣١١٠ قبرص
هاتف : ٣٦٩٣٣٦ - ٥ - ٣٥٧
فاكس . ٣٦٩٣٣٦ - ٥ - ٣٥٧

القاهرة ـ ص.ب ٨١
بريد بانوراما ١١٨١١ ج.م.ع
هاتف وفاكس : ٢٦٦٠١٦٤ - ٢٠٢

كلمة الناشر

نحمد الله حمداً كثيراً علىٰ نعمه أن يسر لنا السبل لخدمة الإسلام ولغة القرآن ، راجين من العلي القدير أن يمدنا بالعون لمتابعة هذا العمل الجليل .

إن كتاب « حدث في رمضان » هذا هو رابع كتاب يصدر للمؤلف بعد وفاته ، وسوف نسعىٰ جاهدين بإذن الله وتوفيقه بإصدار ما تركه المؤلف ـ رحمه الله ـ من تراثه العلمي الذي يتسم بعمق الفكرة ، وسلاسة الأسلوب ، وإيجاز العبارة .

كما سنقوم بإعادة ما قد تم طباعته سابقاً بعد عمل بعض التعديلات الفنية في الإخراج ، وعمل التصحيحات والإضافات التي أشار إليها المؤلف ـ رحمه الله ـ .

ولا يفوتنا أن ننبه القارئ الكريم إلىٰ أننا أصحاب الحق الوحيدين لنشر وطباعة وتوزيع جميع كتب **الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا** بالصورة التي بين يديك .

كما نشكر قارئنا الكريم علىٰ اختيار أحد منشوراتنا ونطلب منه العون في إبداء الرأي والإشارة لأي خطأ قد يرد لكي تعم الفائدة .... والله من وراء القصد .

النـاشـر

يمـــان عبد الرحمن رأفت الباشا

رضوان عبد الرحمن رأفت الباشا

بسم الله الرحمن الرحيم

مَولِدُ عَالَمٍ جَدِيدٍ

أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ

بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ...﴾(١)

صَدَقَ اللهُ العَظِيمُ

فِي رَمَضَانَ قَبلَ الْهِجْرَةِ بِثَلَاثَةَ عَشَرَ عَاماً، وَفِي الرَّابِعِ وَالعِشْرِينَ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ الكَرِيمِ عَلَىٰ الأَرْجَحِ ...

سَعِدَ هَذَا الكَوْكَبُ الأَرْضِيُّ بِأَرْوَعِ لَحْظَةٍ مِنْ لَحظَاتِ حَيَاتِهِ؛ وَشَهِدَ أَعْظَمَ حَادِثٍ وَقَعَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ...

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٥.

فَكَانَ هَذَا الحَادِثُ فُرْقَاناً[1] فِي تَارِيخِ البَشَرِيَّةِ كُلِّهَا؛ وَإِيذَاناً بِمَوْلِدِ عَالَمٍ جَدِيدٍ.

* * *

فَفِي هَذَا الْيَوْمِ الأَغَرِّ المُحَجَّلِ[2] مِنْ عُمُرِ الدَّهْرِ تَفَضَّلَ الإِلَهُ العَظِيمُ الجَبَّارُ؛ المُتَكَبِّرُ؛ مَالِكُ المُلْكِ؛ عَلَىٰ هَذَا الكَوْكَبِ الأَرْضِيِّ الصَّغِيرِ وَخَصَّهُ بِإِكْرَامِهِ...

فَاخْتَارَ مِنْ بَيْنِ الخَلِيقَةِ رَسُولاً مِنْهَا لِيَتْلُوَ عَلَيْهَا آيَاتِ اللَّهِ، وَيُعَلِّمَهَا الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ، وَيُخْرِجَهَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ، وَيَسْلُكَ بِهَا صِرَاطَ العَزِيزِ الحَمِيدِ.

وَلِهَذَا اليَوْمِ المَجِيدِ قِصَّةٌ بَاقِيَةٌ عَلَىٰ وَجْهِ الدَّهْرِ مَحْفُورَةٌ فِي ذَاكِرَةِ الزَّمَانِ.

* * *

تَبْدَأُ هَذِهِ القِصَّةُ مُنْذُ آثَرَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

---

(١) فرقاناً: فاصلاً بين الحق والباطل.

(٢) الغُرَّة: بياض في جبهة الفرس، فيوصف بأنه أغر، والتحجيل بياض في قوائمه فيوصف بأنه محجل واستعير الوصفان لكل شيء حسن، تيمنا بلونهما الأبيض.

عَبْدِ المُطَّلِبِ العُزْلَةَ، وَحُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلَاءُ، فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَخْلُوَ وَحْدَهُ، وَكَانَ يَأْتِي غَارَ «حِرَاءٍ»(١) - وَمَعَه زَادُهُ - فَيَتَحَنَّثُ(٢) فِيهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ وَيَتَعبَّدُ، حَتَّىٰ إِذَا نَفِدَ زَادُهُ وَحَنَّ إِلَىٰ أَهْلِهِ؛ رَجَعَ إِلَىٰ زَوْجِهِ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ فَتَزَوَّدَ لِرِحْلَةٍ جَدِيدَةٍ وَيعُودُ إِلَىٰ خَلْوَتِهِ وَعِبَادَتِهِ.

* * *

وَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يُمَهِّدَ نَفْسَ نَبِيِّهِ الكَرِيمِ ﷺ لِاسْتِقْبَالِ القَوْلِ الثَّقِيلِ الَّذِي سَيُلْقِيهِ عَلَيْهِ...

فَبَدَأَهُ بِالرُّؤْيَا الصَّادِقَةِ، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، وَمَكَثَ عَلَىٰ ذَٰلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ...

وَكَانَ إِذَا خَرَجَ لِحَاجَتِهِ؛ أَبْعَدَ حَتَّىٰ تَحْسَرَ(٣) عَنْهُ بُيُوتُ مَكَّةَ، وَأَمْعَنَ حَتَّىٰ يُفْضِيَ إِلَىٰ شِعَابِهَا وَبُطُونِ

---

(١) غار حراء: مغارة في جبل حراء بمَكَّة.
(٢) التحنُّث: هو التعبد.   (٣) تحسر عنه: تبعد عنه.

أَوْدِيَتِهَا ... فَلَا يَمُرُّ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا قَالَ:

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ...

فَيَلْتَفِتُ حَوْلَهُ وَعَنْ يَمِينِهِ؛ وَعَنْ شِمَالِهِ، وَخَلْفَهُ فَلَا يَرَىٰ إِلَّا الشَّجَرَ وَالحِجَارَةَ. وَمَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَذَلِكَ يَرَىٰ وَيَسْمَعُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ.

وَكَانَ مِنْ دَأْبِهِ إِذَا مَا أَهَلَّ رَمَضَانُ أَنْ يُجَاوِرَ الشَّهْرَ كُلَّهُ فِي غَارِ «حِرَاءٍ» مُتَعَبِّداً مُتَحَنِّثاً حَتَّىٰ إِذَا اسْتَكْمَلَ شَهْرَهُ وَانْصَرَفَ مِنْ جِوَارِهِ؛ يَبْدَأُ بِالكَعْبَةِ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بَيْتَهُ، فَيَطُوفُ بِهَا سَبْعاً أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ...

ثُمَّ يَرجِعُ إِلَىٰ بَيْتِهِ وَأَهْلِهِ.

* * *

وَفِي رَمَضَانَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِثَلَاثَةَ عَشَرَ عَاماً كَانَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ يُجَاوِرُ عَلَىٰ عَادَتِهِ فِي رَمَضَانَ فَفَجِئَهُ الحَقُّ وهُوَ فِي غَارِ «حِرَاءٍ»...

لَقَدْ جَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ لَهُ: اقْرَأْ...

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ...

فَأَخَذَهُ المَلَكُ؛ فَغَطَّهُ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنْهُ الجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَهُ وَقَالَ لَهُ: اِقْرَأْ.

فَقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ...

فَأَخَذَهُ فَغَطَّهُ الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنْهُ الجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَهُ فَقَالَ: اِقْرَأْ.

فَقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ...

فَأَخَذَهُ فَغَطَّهُ الثَّالِثَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنْهُ الجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَهُ وَقَالَ لَهُ:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ...﴾(١)

عِنْدَ ذَٰلِكَ رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ زَوْجِهِ

---

(١) سورة العلق: آية ١ ـ ٥.

خَدِيجَةَ يَرتَجِفُ فُؤَادُهُ مِنْ هَوْلِ[1] مَا رَأَىٰ، وَشِدَّةِ مَا سَمِعَ...

وَقَدْ زَادَهُ هَوْلاً وَارْتِجَافاً أَنَّهُ مَا كَادَ يَبْلُغُ وسَطَ الجَبَلِ حَتَّىٰ سَمِعَ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ:

يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَا جِبْرِيلُ...

فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ لِيَنْظُرَ فَإِذَا جِبْرِيلُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ صَافٍّ قَدَمَيْهِ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ وَهُوَ يَقُولُ:

أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَا جِبْرِيلُ...

فَوقَفَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ، وَجَعَلَ يَصْرِفُ وَجْهَهُ عَنْهُ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ فَلَا يَنْظُرُ فِي نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِيهَا إِلَّا رَآهُ كَذَلِكَ...

ثُمَّ انْصَرَفَ جِبْرِيلُ عَنِ الرَّسُولِ؛ وَانْصَرَفَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَىٰ أَهْلِهِ.

* * *

(١) الهول: الخطر المرعب.

رَجَعَ النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَىٰ زَوْجِهِ خَدِيجَةَ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ[1] وَهُوَ يَقُولُ: (زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي[2]) ...

فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ.

أَخْبَرَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ خَدِيجَةَ الخَبَرَ؛ وَقَالَ: (قَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي) ...

فَقَالَتْ لَهُ: كَلَّا «أَبْشِرْ فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَداً؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الحَقِّ».

* * *

انْطَلَقَتْ خَدِيجَةُ بِالرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ حَتَّىٰ أَتَتْ «وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ»، وَكَانَ امْرَءًا قَدْ تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ وَكَتَبَ الكِتَابَ العَرَبِيَّ، وَكَتَبَ العِبْرَانِيَّةَ[3] مِنَ الإِنْجِيلِ[4]؛ وَكَانَ شَيْخاً كَبِيراً قَدْ عَمِيَ.

---

(١) البوادر: أطراف الجسم، وخاصة ما بين المنكب والعنق.

(٢) زمّلوني: غطّوني، والمزمّل المتلفف بثيابه.

(٣) العبرانية: كتابة اليهود.

(٤) الإنجيل: الكتاب الذي أنزله الله عَلَىٰ نبيه عيسىٰ.

فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَي ابْنَ عَمٍّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ.

قَالَ وَرَقَةُ: ابْنَ أَخِي مَا تَرَىٰ؟...

فَأَخْبَرَهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِمَا رَأَىٰ.

فَقَالَ وَرَقَةُ:

هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَىٰ مُوسَىٰ، لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعاً[(١)] شَابًا...

لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟!)

قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ... فَإِنَّهُ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ أَدْرَكَنِي يَوْمُكَ أَنصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً[(٢)].

ثُمَّ تَتَابَعَ الوَحْيُ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ

---

(١) جذعاً: الجذع الشاب. (٢) نصراً مؤزراً: نصراً قويًا مبيناً.

مُؤمِنٌ بِرَبِّهِ مُصَدِّقٌ بِمَا جَاءَ مِنْهُ ؛ مُوَطِّنٌ[1] نَفْسَهُ عَلَىٰ تَحَمُّلِ مَا حَمَّلَهُ اللَّهُ ؛ رَضِيَ العِبَادُ أَمْ سَخِطُوا ...

فَلِلنُّبُوَّةِ أَعْبَاءٌ لَا يَنْهَضُ[2] بِهَا ، وَلَا يُطِيقُ حَمْلَهَا إِلَّا أُولُو القُوَّةِ وَالعَزْمِ .

* * *

آمَنَتِ البَرَّةُ الطَّاهِرَةُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيلِدٍ بِاللَّهِ ؛ وَصَدَّقَتِ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِمَا جَاءَ مِنْ رَبِّهِ ...

فَخَفَّفَ اللَّهُ بِذَلِكَ عَنْ نَبِيِّهِ مَا كَانَ يَلقَاهُ مِنْ رَدٍّ عَلَيْهِ ؛ وَتَكْذِيبٍ لَهُ .

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ فَتَرَ الوَحْيُ عَنِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ وَأَبْطَأَ عَنْهُ جِبْرِيلُ فَمَا عَادَ يَأْتِيهِ ...

فَحَزِنَ لِذَلِكَ أَشَدَّ الحُزْنِ ، وَعَانَىٰ مِنْهُ أَشَدَّ العَنَاءِ حَتَّىٰ ضَاقَتْ عَلَيْهِ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ .

---

(١) موطن نفسه : مثبت نفسه علىٰ فعل الشيء.
(٢) لا ينهض بها : لا يقوم بأعبائها.

وَكَانَ مِمَّا زَادَ فِي لَوْعَتِهِ وَأَسَاهُ سُخْرُ الْمُشْرِكِينَ مِنْهُ ؛ وَهُزْؤُهُمْ بِهِ ، وَقَوْلُهُمْ :

إِنَّ رَبَّهُ وَدَّعَهُ وَقَلَاهُ[1].

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ حُزْنِهِ عَلَىٰ انْقِطَاعِ الوَحْيِ عَنْهُ ؛ أَنَّهُ جَعَلَ يَغْدُو إِلَىٰ جَبَلِ «ثَبِيرٍ» تَارَةً وَإِلَىٰ «حِرَاءٍ» تَارَةً أُخْرَىٰ وَهُوَ يَهِمُّ أَنْ يُلْقِيَ بِنَفْسِهِ مِنْ شَاهِقٍ...

فَكَانَ كُلَّمَا أَوْفَىٰ بِذِرْوَةِ[2] جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ بِنَفْسِهِ مِنْهُ...

تَبَدَّىٰ[3] لَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ :

يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا .

فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ[4]؛ وَتَقَرُّ نَفْسُهُ ، وَيَرْجِعُ عَنْ عَزْمِهِ .

* * *

---

(١) قلاه : أبغضه .

(٢) أوفىٰ علَىٰ الشيء : أشرف عليه ، وذروة كل شيء : أعلاه .

(٣) تبدىٰ له : ظهر له .

(٤) فيسكن لذلك جأشه : تهدأ حركته .

فَبَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي بَعْضِ طَرِيقِهِ إِلَىٰ تِلْكَ الجِبَالِ وَهُوَ يُعَانِي مِنَ انْقِطَاعِ الوَحْيِ عَنْهُ مَا يُعَانِي، وَتُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِمَا تُحَدِّثُهُ بِهِ إِذْ جَاءَهُ الفَرَجُ...

لَقَدْ سَمِعَ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ فَوَقَفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَعِقاً[1] لِلصَّوتِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ... فَإِذَا جِبْرِيلُ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ مُتَرَبِّعاً عَلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ:

يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا؛ وَأَنَا جِبْرِيلُ.

ثُمَّ جَاءَهُ جِبْرِيلُ بِقَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ:

﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[2].

---

(١) صعقاً للصوت: كأنه مغشي عليه. (٢) سورة الضحىٰ.

فَكَانَتْ هَذِهِ السُّورَةُ لَمْسَةً مِنْ حَنَانٍ وَنَسْمَةً مِنْ رَحْمَةٍ، وَطَائِفاً مِنْ وُدٍّ يَطُوفُ بِالرَّسُولِ الكَرِيمِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَكَانَتِ اليَدَ الحَانِيَةَ الَّتِي مَسَحَتْ آلَامَهُ، وَسَكَبَتْ عَلَيْهِ بَرْدَ الطُّمَأْنِينَةِ وَاليَقِينِ.

* * *

وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِمَّا كَانَ يَلْقَاهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ الوَحْيِ وَوَطْأَتِهِ عَلَيْهِ؛ فَقَدْ كَانَ يَشْتَاقُهُ وَيَتَرَقَّبُهُ.

فَعَنْ أَبِي أَرْوَىٰ الدَّوْسِيِّ أَنَّهُ قَالَ:

رَأَيْتُ الوَحْيَ يَنْزِلُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَإِنَّهُ عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ، فَتَرْغُو وَتَفْتِلُ[1] يَدَيْهَا حَتَّىٰ أَظُنَّ أَنَّ ذِرَاعَهَا تَنْقَصِمُ[2]، فَرُبَّمَا بَرَكَتْ، وَرُبَّمَا قَامَتْ مُوَتَّدَةً[3] حَتَّىٰ يُسَرَّىٰ عَنْهُ مِنْ ثِقَلِ الوَحْيِ، وَإِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الجُمَانِ.

---

(١) فترغو وتفتل: تضطرب في مشيها.
(٢) تنقصم: تنكسر.
(٣) موتدة: وقفت وكأنها الوتد الثابت في الأرض.

وَقَدْ كَانَ الوَحْيُ يَأْتِي الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللّٰهِ عَلَيْهِ عَلَىٰ نَحْوَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ...

فَعَنِ الحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ:

يَا رَسُولَ اللّٰهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ: (أَحْيَاناً يَأْتِينِي فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ؛ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيُفْصِمُ[1] عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ...

وَأَحْيَاناً يَتَمَثَّلُ لِي المَلَكُ فَيُكَلِّمُنِي؛ فَأَعِي مَا يَقُولُ).

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ رِضْوَانُ اللّٰهِ عَلَيْهَا أَنَّهَا قَالَتْ:

لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللّٰهِ ﷺ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ فَيُفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ[2] عَرَقاً.

---

(١) يفصم: ينفصل ويزول. (٢) يتفصد: ينز بالعرق

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ يُعَالِجُ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ...

كَانَ يَلْقَاهُ وَيُحَرِّكُ شَفَتَيهِ كَيْ لَا يَنْسَاهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾(١).

وَقَدْ ظَلَّ الوَحْيُ زَاداً لِلرَّسُولِ ﷺ يَتَزَوَّدُ بِهِ فِي مَشَقَّةِ الطَّرِيقِ...

وَظِلًّا يَفِيءُ إِلَيْهِ كُلَّمَا لَفَحَهُ هَجِيرُ الجُحُودِ...

وَعَوْناً مِنَ السَّمَاءِ يُوَاجِهُ بِهِ المَكْرَ وَالكَيْدَ وَالأَذَىٰ...

---

(١) سورة القيامة: ١٦ - ١٩.

وَهَادِياً يَهْدِيهِ سَوَاءَ السَّبِيلِ.

* * *

وَاسْتَمَرَّ هَذَا الوَحْيُ حَتَّىٰ أَكْمَلَ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ دِينَهُمْ، وَأَتَمَّ عَلَيْهِمْ نِعْمَتَهُ، وَرَضِيَ لَهُمُ الإِسْلَامَ دِيناً، وَاسْتَأْثَرَ بِنَبِيِّهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ.

جَزَىٰ اللَّهُ نَبِيَّنَا مُحَمَّداً عَنَّا وَعَنِ الإِنْسَانِيَّةِ خَيْرَ الجَزَاءِ؛ فَقَدْ حَمَلَ الرِّسَالَةَ...

وَأَدَّىٰ الأَمَانَةَ...

وَنَصَحَ لِلأُمَّةِ...

وَمَضَىٰ إِلَىٰ رَبِّهِ رَاضِياً مَرْضِيًّا.

* * *

أَعْظَمُ مُؤْتَمَرٍ لِلشُّورَىٰ
عَرَفَهُ تَارِيخُ الإِسْلَامِ

فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِلْهِجْرَةِ؛ وَفِي شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ عَقَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَخْطَرَ مُؤْتَمَرٍ لِلشُّورَىٰ عَرَفَهُ تَارِيخُ الْمُسْلِمِينَ.

وَلِهَذَا الْمُؤْتَمَرِ التَّارِيخِيِّ الكَبِيرِ قِصَّةٌ لَا تَنْسَاهَا ذَاكِرَةُ الزَّمَانِ...

فَفِي أَوَائِلِ الْخَرِيفِ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِلْهِجْرَةِ عَرَفَ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ الشَّامِ فِي تِجَارَةٍ كَبِيرَةٍ، فَبَادَرَ النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي مِائَتَيْ مُقَاتِلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ لِاعْتِرَاضِ

القَافِلَةِ ؛ وَلَكِنَّ أَبَا سُفْيَانَ تَمَكَّنَ مِنَ النَّجَاةِ وَتَابَعَ طَرِيقَهُ إِلَىٰ الشَّامِ.

* * *

ظَلَّ الْمُسْلِمُونَ يَتَرَقَّبُونَ عَوْدَةَ القَافِلَةِ بِقُلُوبٍ يَقِظَةٍ، وَعُيُونٍ مَفتُوحَةٍ ؛ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الخَبَرُ اليَقِينُ بِعَوْدَةِ أَبِي سُفْيَانَ مِنَ الشَّامِ عَلَىٰ رَأْسِ قَافِلَةٍ فِيهَا أَلْفُ بَعِيرٍ، وَكَانَتِ الجِمَالُ مُوقَرَةً[1] بِأَغْلَىٰ نَفَائِسِ الشَّامِ مِمَّا تُحِبُّهُ قُرَيْشٌ وَتُؤْثِرُهُ...

إِنَّهَا لَفُرْصَةٌ ذَهبِيَّةٌ سَانِحَةٌ سَتُتِيحُ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَثْأَرُوا لِأَمْوَالِ الْمُهَاجِرِينَ الَّتِي صَادَرَهَا الكُفَّارُ مِنْ قُرَيْشٍ إِثْرَ الْهِجْرَةِ...

وَأَنْ يَظْفَرُوا بِمَا يُقَابِلُ الثَّرَوَاتِ الَّتِي خَلَّفُوهَا فِي مَكَّةَ حِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَفَرُّوا إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بِدِينِهِمْ...

---

(١) موقرة: محملة بأحمال ثقيلة.

ثُمَّ إِنَّ ذَٰلِكَ سَيُتِيحُ لَهُمْ أَنْ يَضْرِبُوا مُعَسْكَرَ الشِّرْكِ ضَرْبَةً اقْتِصَادِيَّةً قَاصِمَةً.

فَلَمْ تَكُنْ أَمْوَالُ هَٰذِهِ القَافِلَةِ وَقْفاً عَلَىٰ الأَغْنِيَاءِ وَحْدَهُمْ، وَإِنَّمَا كَانَتْ لِجُلِّ النَّاسِ، وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا قَلِيلاً... وَإِنَّمَا كَانَتْ أَلْفَ جَمَلٍ مُحَمَّلَةً بِأَجْوَدِ مَا تَسْتَورِدُهُ الحِجَازُ مِنَ الشَّامِ...

وَلَمْ يَكُنْ مَعَ هَٰذِهِ القَافِلَةِ العَظِيمَةِ إِلَّا أَرْبَعُونَ رَجُلاً يَتَوَلَّوْنَ حِفْظَهَا وَيَقُومُونَ بِحِمَايَتِهَا.

* * *

لَمْ يَسْتَنْفِرِ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ سَائِرَ أَصْحَابِهِ وَلَمْ يُلْزِمْهُمْ بِالخُرُوجِ مَعَهُ...

وَإِنَّمَا كَانَ نِدَاؤُهُ لَهُمْ أَدْنَىٰ[1] إِلَىٰ التَّرْغِيبِ وَأَقْرَبَ إِلَىٰ الاسْتِحْسَانِ...

فَمَا زَادَ عَلَىٰ أَنْ قَالَ لَهُمْ: (هَٰذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ، فِيهَا أَمْوَالُهُمْ، فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللَّهَ يُنْفِلُكُمُوهَا[2]).

---

(١) أدنىٰ: أقرب.

(٢) ينفلكموها: أيْ يَجْعَلُهَا غَنِيمَةً لَكُمْ.

فَتَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مَنْ تَخَلَّفَ، وَتَابَعَهُ مَنْ تَابَعَ، مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ عَلَىٰ الْمُتَخَلِّفِينَ، فَمَا كَانَ الاسْتِيلَاءُ عَلَىٰ عِيرِ قُرَيْشٍ يَحْتَاجُ إِلَىٰ جَيْشٍ وَفِيرٍ وَجَمْعٍ كَثِيرٍ.

* * *

خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ بِثَلَاثِمِائَةٍ وَسَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِهِ...

فِيهِمْ مِائَتَانِ وَوَاحِدٌ وَثَلَاثُونَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ...

وَسِتَّةٌ وَثَمَانُونَ رَجُلاً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ.

وَكَانَ مَعَهُمْ سَبْعُونَ بَعِيراً وَفَرَسَانِ... لِكُلِّ ثَلَاثَةٍ أَوْ أَرْبَعَةٍ بَعِيرٌ يَتَعَاقَبُونَ عَلَيْهِ...

وَكَانَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَتَعَاقَبُ عَلَىٰ بَعِيرٍ وَاحِدٍ مَعَ مَرْثَدِ بْنِ أَبِي مَرْثَدٍ، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا...

فَرَغِبَ شَرِيكَا الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ بِالتَّنَازُلِ لَهُ عَنْ حِصَّتَيْهِمَا فِي رُكُوبِ الْبَعِيرِ، وَقَالَا لَهُ:

نَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

فَقَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وسَلَامُهُ:

(مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَىٰ مِنِّي، وَلَا أَنَا بِأَغْنَىٰ مِنْكُمَا عَنِ الأَجْرِ)...

وَأَبَىٰ إِلَّا أَنْ يَكُونَ نَصِيبُهُ فِي رُكُوبِ البَعِيرِ كَنَصِيبِ أَيٍّ مِنْهُمَا.

* * *

عَرَفَ أَبُو سُفْيَانَ أَنَّ مُحَمَّداً وَأَصْحَابَهُ قَدْ خَرَجُوا لَهُ فَأَرْسَلَ رَسُولاً إِلَىٰ مَكَّةَ يَطْلُبُ مِنْهَا النَّجْدَةَ، وَيَدْعُوهَا لِاسْتِنْقَاذِ القَافِلَةِ وَحِمَايَتِهَا مِنَ الوُقُوعِ فِي قَبْضَةِ المُسْلِمِينَ...

وَمَا إِنْ بَلَغَ رَسُولُ أَبِي سُفْيَانَ مَكَّةَ؛ حَتَّىٰ وَقَفَ فِي أَعَالِي أَبَاطِحِهَا[1] عَلَىٰ ظَهْرِ بَعِيرِهِ، وَقَدْ حَوَّلَ رَحْلَهُ، وَشَقَّ رِدَاءَهُ، وَجَعَلَ يَصْرُخُ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ:

---

(١) الأباطح: الأماكن الواسعة، وهي غير الجبال، وكأن هذا النذير كان يقف عَلَىٰ أقرب مكان عال يسمعه أهل مَكّة.

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، اللَّطِيمَةَ اللَّطِيمَةَ ...

أَمْوَالُكُمْ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ قَدْ عَرَضَ لَهَا مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ ...

لَا أَرَىٰ أَنَّكُمْ تُدْرِكُونَهَا ...

البِدَارَ البِدَارَ[1]، وَالغَوْثَ الغَوْثَ .

* * *

هَبَّتْ جَمِيعُ قَبَائِلِ قُرَيْشٍ لِنَجْدَةِ أَبِي سُفْيَانَ ، وَوَجَدَ الْمُشْرِكُونَ فِي ذَلِكَ فُرْصَةً سَانِحَةً لِلْقَضَاءِ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَدِينِ مُحَمَّدٍ .

فَجَهَّزُوا لِلِقَاءِ الرَّسُولِ ﷺ جَيْشاً عَظِيماً ضَمَّ زُعَمَاءَ قُرَيْشٍ وَأَقْيَالَهَا[2]، وَاشْتَمَلَ عَلَىٰ صَنَادِيدِ مَكَّةَ وَأَبْطَالِهَا ، وَاشْتَرَكَ فِي تَجْهِيزِهِ المُوسِرُونَ ، وَأَمَدَّهُ بِالرِّجَالِ المُعْسِرُونَ ...

---

(١) البدار البدار : أي سارعوا بالنجدة .
(٢) أقيالها : رؤساؤها وذوو الأمر فيها .

ثُمَّ انْطَلَقَ الجَيْشُ الكَبِيرُ مُيَمِّماً وَجْهَهُ شَطْرَ «بَدْرٍ» لِيُنْقِذَ القَافِلَةَ مِنْ يَدَيْ مُحَمَّدٍ...

وَيَقْضِيَ عَلَى الإِسْلَامِ، وَيَفْتِكَ بِالمُسْلِمِينَ.

* * *

لَقَدِ اقْتَرَبَ أَبُو سُفْيَانَ مِنْ «بَدْرٍ» أَشَدَّ القُرْبِ، وَكَانَ يُعسكِرُ عَلَيْهَا جَيْشُ المُسْلِمِينَ، وَبَيْنَمَا هُوَ يَسْعَىٰ إِلَىٰ حَتْفِهِ بِظِلْفِهِ إِذْ طَالَعَهُ رَجُلٌ يُدْعَىٰ مَجْدِي بْنَ عَمْرٍو، فَسَأَلَهُ عَنْ جَيْشِ مُحَمَّدٍ، فَقَالَ مَجْدِي لِأَبِي سُفْيَانَ:

إِنِّي لَمْ أَقِفْ فِي هَذِهِ الأَرْضِ عَلَىٰ شَيْءٍ أُنْكِرُهُ إِلَّا أَنَّنِي رَأَيْتُ رَجُلَيْنِ، أَنَاخَا[١] رَاحِلَتَيْهِمَا إِلَىٰ جَانِبِ هَذَا التَّلِّ، ثُمَّ اسْتَقَيَا مِنْ مَائِهِ، وَانْطَلَقَا فِي هَذَا الطَّرِيقِ.

أَسْرَعَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَىٰ مُنَاخِ الرَّاحِلَتَيْنِ، وَتَنَاوَلَ بَعَرَاتٍ مِنْ فَضَلَاتِهِمَا، وَفَتَّ البَعَرَاتِ بِيَدَيْهِ، فَوَجَدَ فِيهَا نَوَىٰ التَّمْرِ؛ فَقَالَ:

---

(١) أناخا راحلتيهما: نزلا عن ناقتيهما وتركاهما تبركان على الأرض.

هَذِهِ عَلَائِفُ « يَثْرِبَ » ، وَرَبِّ الكَعْبَةِ ...

وَتَأَكَّدَ لَدَيْهِ أَنَّ الرَّجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ .

عِنْدَ ذَلِكَ انْحَرَفَ أَبُو سُفْيَانَ بِالقَافِلَةِ عَنْ طَرِيقِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ، وَجَعَلَ يَجِدُّ فِي السَّيْرِ ، حَتَّىٰ جَاوَزَ مِنْطَقَةَ الخَطَرِ ، وَبَلَغَ مَكَاناً لَا تَنَالُهُ فِيهِ يَدُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ ...

ثُمَّ أَرْسَلَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَىٰ قُرَيْشٍ ؛ يُعْلِمُهَا بِنَجَاةِ القَافِلَةِ ، وَيَنْصَحُهَا بِالعَوْدَةِ مِنْ حَيْثُ أَتَتْ ، وَعَدَمِ التَّصَدِّي لِقِتَالِ المُسْلِمِينَ .

لَكِنَّ أَبَا جَهْلٍ ـ أَخْزَاهُ اللَّهُ ـ أَبَىٰ أَنْ يَأْخُذَ بِنَصِيحَةِ أَبِي سُفْيَانَ ، وَأَصَرَّ عَلَىٰ مُوَاصَلَةِ السَّيْرِ حَتَّىٰ يَلْقَىٰ مُحَمَّداً وَأَصْحَابَهُ ...

* * *

عَرَفَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنَّ عِيرَ أَبِي سُفْيَانَ قَدْ نَجَتْ ، وَبَلَغَهُ مَا هُوَ أَخْطَرُ مِنْ ذَلِكَ ...

بَلَغَهُ أَنَّ جَيْشَ مَكَّةَ بِقِيَادَةِ أَبِي جَهْلٍ مُصَمِّمٌ عَلَىٰ لِقَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَازِمٌ عَلَىٰ حَرْبِهِمْ...

وَأَنَّ نَجَاةَ الْقَافِلَةِ لَنْ تَمْنَعَهُ مِنْ مُوَاصَلَةِ الزَّحْفِ إِلَىٰ «بَدْرٍ»، وَالْبَطْشِ بِالْمُسْلِمِينَ.

وَجَدَ الرَّسُولُ الْعَظِيمُ ﷺ نَفْسَهُ مُلْزَماً بِأَنْ يَتَّخِذَ قَرَاراً حَاسِماً:

فَإِمَّا أَنْ يَعُودَ إِلَىٰ «يَثْرِبَ» بِصَحَابَتِهِ الَّذِينَ لَا تَزِيدُ عَدَدُهُمْ عَلَىٰ ثَلَاثِ مِئَاتٍ إِلَّا قَلِيلاً، تَارِكاً جَيْشَ الْمُشْرِكِينَ يَجُوسُ[1] خِلَالَ الدِّيَارِ، وَيُظْهِرُ قُوَّتَهُ أَمَامَ الْقَبَائِلِ الضَّارِبَةِ[2] بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ...

وَإِمَّا أَنْ يُنَازِلَ جَيْشَ الْمُشْرِكِينَ الْكَبِيرَ بِجَيْشِهِ الصَّغِيرِ.

بَيْدَ أَنَّ اتِّخَاذَ مِثْلِ هَذَا الْقَرَارِ الْخَطِيرِ لَابُدَّ لَهُ مِنْ مُؤْتَمَرٍ كَبِيرٍ يَشْتَرِكُ فِيهِ الْجَيْشُ وَقَادَتُهُ، فَالْمُسْلِمُونَ

---

(١) يجوس: يدور. (٢) الضاربة: المقيمة في مضاربها بين مكة والمدينة.

مَا خَرَجُوا مَعَ الرَّسُولِ ﷺ إِلَّا لِلاسْتِيلَاءِ عَلَىٰ قَافِلَةٍ لَا يَزِيدُ عَدَدُ حُمَاتِهَا عَلَىٰ أَرْبَعِينَ رَجُلاً ...

ثُمَّ تَحَوَّلَ الأَمْرُ فَجْأَةً إِلَىٰ مُجَابَهَةٍ مَعَ جَيْشٍ لَجِبٍ[1] يَقُودُهُ العِنَادُ ...

وَتُثِيرُهُ الأَحْقَادُ ...

وَيَدْفَعُهُ التَّحَدِّي .

* * *

وَفِي مُنْتَصَفِ رَمَضَانَ عَلَىٰ الأَرْجَحِ انْعَقَدَ عَلَىٰ الرِّمَالِ المُتَرَبِّعَةِ عَلَىٰ كَتِفِ وَادِي « ذِفْرَانَ » أَعْظَمُ مُؤْتَمَرٍ لِلشُّورَىٰ عَرَفَهُ تَارِيخُ الإِسْلَامِ لِيَقْطَعَ فِي أَكْبَرِ أَمْرٍ عَرَضَ[2] لِلْمُسْلِمِينَ فِي فَجْرِ الدَّعْوَةِ .

كَانَ أَوَّلَ المُتَحَدِّثِينَ فِي المُؤْتَمَرِ الخَطِيرِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ وَأَحْسَنَ ...

---

(١) جيش لجب : جيش جرار ذو جلبة .
(٢) عرض للمسلمين: ظهر للمسلمين .

ثُمَّ تَلَاهُ الفَارُوقُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَتَكَلَّمَ وَأَجَادَ...

ثُمَّ تَبِعَهُمَا المِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ... امْضِ لِمَا أَرَاكَ اللَّهُ فَنَحْنُ مَعَكَ...

وَاللَّهِ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ **﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾**(١)...

وَلَكِنْ نَقُولُ لَكَ: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ...

فَسُرَّ الرَّسُولُ الكَرِيمُ ﷺ لِمَقَالَتِهِ، لَكِنَّهُ مَا زَالَ يُرِيدُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْ غَيْرِهِ، فَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا جَمِيعاً وَاحِدٌ مِنَ الأَنْصَارِ...

وَمَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ لِيَقْطَعَ فِي هَذَا الأَمْرِ مِنْ دُونِهِمْ...

ذَلِكَ لِأَنَّ أَكْثَرِيَّةَ جَيْشِهِ مِنْهُمْ وَهُمُ الَّذِينَ

---

(١) سورة المائدة: آية ٢٤.

سَيَحْمِلُونَ عِبْءَ المَعْرَكَةِ عَلَىٰ كَوَاهِلِهِمْ[1]...

ثُمَّ إِنَّهُمْ حِينَ بَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ فِي العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ؛ تَعَهَّدُوا لَهُ بِحِمَايَتِهِ مِمَّا يَحْمُونَ مِنْهُ أَنْفُسَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ، وَلَمْ يَعِدُوهُ بِالقِتَالِ مَعَهُ خَارِجَ دِيَارِهِمْ.

* * *

أَدْرَكَ الأَنْصَارُ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ رَاغِبٌ فِي لِقَاءِ المُشْرِكِينَ؛ وَأَنَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ فِي ذَلِكَ إِلَّا بِرَأْيِهِمْ...

فَقَامَ سَيِّدُهُمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، وَأَعْلَنَ فِي كَلِمَاتٍ حَاسِمَةٍ حَازِمَةٍ؛ عَزْمَ الأَنْصَارِ عَلَىٰ خَوْضِ المَعْرَكَةِ مَعَ نَبِيِّهِمْ، فَقَالَ مُخَاطِباً الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ:

قَدْ آمَنَّا بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا عَلَىٰ

---

(١) علىٰ كواهلهم: علىٰ أكتافهم، أي سيحملون العبء وحدهم.

السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ...

فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لَوْ اسْتَعْرَضْتَ[1] بِنَا هَذَا البَحْرَ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ؛ وَمَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَىٰ بِنَا عَدُوَّنَا غداً...

إِنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ لَصُبُرٌ فِي الحَرْبِ... صُدُقٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ؛ فَسِرْ بِنَا عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ.

حَسَمَتْ هَذِهِ الكَلِمَاتُ الحَازِمَاتُ الأَمْرَ، وَظَهَرَ عَلَىٰ وَجْهِ الرَّسُولِ الكَرِيمِ ﷺ السُّرُورُ وَالبِشْرُ، وَأَمَرَ الجَيْشَ الإِسْلَامِيَّ بِالتَّوَجُّهِ إِلَىٰ لِقَاءِ عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّهِ.

ثُمَّ خَاطَبَ المُسْلِمِينَ قَائِلاً:

(سِيرُوا وَأَبْشِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَىٰ الطَّائِفَتَيْنِ... وَاللَّهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ مَصَارِعِ القَوْمِ).

---

(١) لو استعرضت بنا: لو أردت أن تخوض هذا البحر لخضناه معك.

وَتَحَرَّكَ الجَيْشُ نَحْوَ «بَدْرٍ»، وَهُنَاكَ الْتَقَىٰ الجَمْعَانِ...

جَمْعٌ قَلِيلٌ بِعَدَدِهِ وَعُدَدِهِ؛ كَثِيرٌ بِإِيمَانِهِ وَيَقِينِهِ...

وَجَمْعٌ غَفِيرٌ بِعَدَدِهِ وَفِيرٌ بِعُدَدِهِ؛ قَلِيلٌ بِكُفْرِهِ وَجُحُودِهِ.

وَدَارَتْ بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ رَحَىٰ حَرْبٍ ضَرُوسٍ[1] دَافَعَ فِيهَا المُؤْمِنُونَ عَنْ إِيمَانِهِمْ...

وَنَاضَلَ فِيهَا الْمُشْرِكُونَ عَنْ كُفْرِهِمْ...

إِلَىٰ أَنْ كَتَبَ اللَّهُ لِجُنْدِهِ النَّصْرَ وَالغَنِيمَةَ...

وَكَتَبَ لِجُنْدِ اللَّاتِ وَالعُزَّىٰ الخَيْبَةَ وَالهَزِيمَةَ.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[2].

* * *

(١) حرب ضروس: حرب شديدة مهلكة.

(٢) سورة الحج: آية ٤٠.

مَصْرَعُ أَبِي جَهْلٍ

فِي هَذَا الشَّهْرِ الكَرِيمِ، طُوِيَتْ أَكْبَرُ رَايَةٍ مِنْ رَايَاتِ الجَاهِلِيَّةِ السُّودِ... وَهَوَىٰ أَضْخَمُ صَنَمٍ مِنْ أَصْنَامِ الشِّرْكِ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ.

فَفِي السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ، سَنَةَ اثْنَتَيْنِ لِلْهِجْرَةِ لَقِيَ أَبُو جَهْلٍ مَصْرَعَهُ عَلَىٰ أَيْدِي المُسْلِمِينَ فِي «بَدْرٍ»...

وَغَيَّبَتْ رِمَالُ «القَلِيبِ»(١) فِي جَوْفِهَا السَّحِيقِ أَكْبَرَ طَاغِيَةٍ عَرَفَتْهُ جَزِيرَةُ العَرَبِ.

وَلِأَبِي جَهْلٍ قِصَّةٌ لَا يَنْسَاهَا تَارِيخُ الصِّرَاعِ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ.

* * *

---

(١) القليب: بئر بجوار بدر دفن فيه قتلىٰ المشركين.

كَانَ عَمْرُو بْنُ هِشَامِ الْمَخْزُومِيُّ الْقُرَشِيُّ سَيِّداً مِنْ سَادَاتِ العَرَبِ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَبَطَلاً مِنْ أَبْطَالِ قُرَيْشٍ المَعْدُودِينَ، وَدَاهِيَةً مِنْ دُهَاتِهَا المَشْهُورِينَ، وَكَانَتْ تُكَنِّيهِ «بِأَبِي الحَكَمِ» فَأَطْلَقَ عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ «أَبَا جَهْلٍ».

لَقَدْ سَوَّدَتْ قُرَيْشٌ أَبَا جَهْلٍ وَهُوَ فَتًى لَمْ يَطُرَّ شَارِبُهُ[1]، وَأَدْخَلَتْهُ فِي دَارِ النَّدْوَةِ مَعَ الكُهُولِ لِيَنْظُرَ فِي شُئُونِهَا وَيَقْطَعَ فِي أُمُورِهَا.

وَقَدْ كَانَ جَدِيراً بِعَقْلِ أَبِي جَهْلٍ وَحِكْمَتِهِ أَنْ يَقُودَاهُ إِلَىٰ الإِيمَانِ بِدَعْوَةِ الإِسْلَامِ، وَالإِذْعَانِ لِكَلِمَةِ الحَقِّ، وَالفَوْزِ بِسُؤْدَدِ الدُّنْيَا وَعِزِّ الآخِرَةِ، وَلَٰكِنَّهُ العِنَادُ.

إِنَّهُ العِنَادُ الَّذِي أَخْرَجَ إِبْلِيسَ مِنَ الجَنَّةِ...

وَأَدخَلَ أَبَا جَهْلٍ النَّارَ...

إِنَّهُ العِنَادُ الَّذِي جَعَلَ أَبَا جَهْلٍ يَسْتَمِعُ ذَاتَ مَرَّةٍ هُوَ

---

(١) لم يطر شاربه: لم يظهر شعر شاربه [كناية عن حداثة سنه].

وَالأَخْنَسُ الثَّقَفِيُّ إِلَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَهُوَ يَتْلُو طَائِفَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ البَيِّنَاتِ ، فَقَالَ الأَخْنَسُ لِأَبِي جَهْلٍ :

مَا رَأْيُكَ يَا أَبَا الحَكَمِ فِيمَا سَمِعْتَ مِنْ مُحَمَّدٍ ؟ .

فَقَالَ : مَاذَا سَمِعْتُ ؟ ... تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو « عَبْدِ مَنَافٍ » الشَّرَفَ ...

أَطْعَمُوا فَأَطْعَمْنَا ، وَحَمَلُوا فَحَمَلْنَا ، وَأَعْطَوْا فَأَعْطَيْنَا ...

حَتَّىٰ إِذَا تَحَاذَيْنَا عَلَىٰ الرُّكَبِ(١)، وَكُنَّا كَفَرَسَيْ رِهَانٍ قَالُوا : مِنَّا نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ ...

فَمَتَىٰ نُدْرِكُ ذَلِكَ ؟! ...

وَاللَّهِ لَا نُؤْمِنُ بِهِ أَبَداً وَلَا نُصَدِّقُهُ .

* * *

وَلَجَّ(٢) أَبُو جَهْلٍ فِي عِنَادِهِ ، وَاسْتَعْمَلَ قُوَّتَهُ

---

(١) تحاذينا علىٰ الركب : كناية عن التساوي في الشرف والمقام .
(٢) لج : ذهب في العناد إِلَىٰ أبعد مدىٰ .

وَسَطْوَتَهُ فِي إِيذَاءِ المُسْلِمِينَ، تَارَةً بِيَدِهِ، وَأُخْرَىٰ بِلِسَانِهِ، وَثَالِثَةً بِكَيْدِهِ وَفِكْرِهِ...

فَكَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ يَرُدُّ كَيْدَهُ فِي نَحْرِهِ[١]، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ عَاقِبَةَ أَمْرِهِ.

آذَىٰ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ذَاتَ مَرَّةٍ فَكَانَ ذَلِكَ سَبَباً فِي إِسْلَامِ عَمِّ الرَّسُولِ ﷺ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ[٢]...

فَعَزَّ بِذَلِكَ الإِسْلَامُ، وَفَرِحَ بِهِ المُسْلِمُونَ وَدَعَوْا حَمْزَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ: أَسَدَ اللَّهِ...

فَكَانَ أَسَداً عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ.

وَبَالَغَ هُوَ وَقَوْمُهُ فِي اضْطِهَادِ المُسْلِمِينَ وَتَعْذِيبِ المُسْتَضْعَفِينَ؛ فَسَلَّطُوا عَلَيْهِمُ السُّفَهَاءَ، وَأَغْرَوْا بِهِمُ[٣] الحَمْقَىٰ... فَكَانَ ذَلِكَ سَبَباً لِلْهِجْرَةِ...

---

(١) نحره: رقبته.

(٢) حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ: انظره في كتاب «صور من حياة الصَّحابة» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة المشروعة.

(٣) أغروا بهم: سلطوا عليهم السفهاء وشجعوهم علىٰ السخرية بهم.

وَكَانَتِ الهِجْرَةُ سَبَباً فِي إِزَالَةِ دَوْلَةِ الشِّرْكِ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللّٰهِ فِي الأَرْضِ.

وَأَشَارَ أَبُو جَهْلٍ عَلَىٰ قَوْمِهِ يَوْمَ النَّدْوَةِ بِقَتْلِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللّٰهِ عَلَيْهِ؛ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ دَعْوَتِهِ فَأَخَذَتْ قُرَيْشٌ بِمَشُورَتِهِ...

وَوَقَفَ أَبُو جَهْلٍ لَيْلَةَ تَنْفِيذِ الْجَرِيمَةِ مَعَ الَّذِينَ أَحَاطُوا بِمَنْزِلِ الرَّسُولِ ﷺ... فَخَرَجَ رَسُولُ اللّٰهِ صَلَوَاتُ اللّٰهِ عَلَيْهِ مِنَ المَنْزِلِ المُطَوَّقِ تَحْتَ سَمْعِ القَوْمِ وَأَمَامَ أَبْصَارِهِمْ؛ وَفِي يَدِهِ حِفْنَةٌ مِنْ تُرَابٍ ذَرَّهَا[1] عَلَىٰ رَأْسِ أَبِي جَهْلٍ وَمَنْ كَانَ مَعَ أَبِي جَهْلٍ، وَهُوَ يَتْلُو قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[2].

وَطَارَ صَوَابُ أَبِي جَهْلٍ وَفَقَدَ عَقْلَهُ حِينَ أَفْلَتَ

---

(١) ذرها: نثرها.

(٢) سورة يس: آية ٩.

الضَّحِيَّةُ مِنْ بَرَاثِنِهِ ؛ فَطَافَ بُيُوتَ مَكَّةَ يَبْحَثُ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ غَيْرِ جَدْوَىٰ .

كَانَ أَوَّلَ بَيْتٍ قَصَدَهُ بَيْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فَخَرَجَتْ لَهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ[١]، فَقَالَ لَهَا أَبُو جَهْلٍ :

أَيْنَ أَبُوكِ ؟

فَقَالَتِ البِنْتُ : لَا أَدْرِي ...

فَرَفَعَ عِنْدَ ذَلِكَ يَدَهُ الآثِمَةَ وَلَطَمَ خَدَّ أَسْمَاءَ لَطْمَةً قَاسِيَةً سَقَطَ مِنْ شِدَّتِهَا قِرطُهَا[٢].

* * *

وَبَيْنَمَا كَانَ أَبُو جَهْلٍ وَأَتْبَاعُهُ يَبْحَثُونَ عَنْ مُحَمَّدٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، مُهْتَاجِينَ مُلْتَاعِينَ[٣]...

كَانَتْ « يَثْرِبُ » تَخْرُجُ بِشِيبِهَا وَشَبَابِهَا وَفِتْيَانِهَا

---

(١) أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ : انظرها في كتاب « صور من حياة الصَّحابيات » للمؤلف .

(٢) قرطها : حلقها .

(٣) مهتاجين ملتاعين : حريصين عَلَىٰ الوصول إليه .

وَفَتَيَاتِهَا لِتَسْتَقْبِلَ نَزِيلَهَا العَظِيمَ وَنَبِيَّهَا الكَرِيمَ ﷺ بِالفَرْحَةِ وَالأَهَازِيجِ.

وَبَيْنَمَا كَانَ أَبُو جَهْلٍ يَأْكُلُ نَفْسَهُ حَسَداً وَحِقْداً فِي مَكَّةَ...

كَانَ الرَّسُولُ الكَرِيمُ ﷺ يُرْسِي فِي «يَثْرِبَ» دَعَائِمَ دَوْلَةِ الإِسْلَامِ...

وَلَمْ يَمْضِ عَلَىٰ هِجْرَةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللّٰهِ عَلَيْهِ إِلَّا تِسْعَةَ عَشَرَ شَهْراً؛ حَتَّىٰ أَصْبَحَ فِي وُسْعِ المُهَاجِرِينَ المُسْتَضْعَفِينَ أَنْ يُهَدِّدُوا تِجَارَةَ قُرَيْشٍ مَعَ الشَّامِ...

وَأَنْ يَقُضُّوا مَضَاجِعَ أَقْيَالِ[1] مَكَّةَ، وَأَنْ يَتَصَدَّوْا لِأَبِي جَهْلٍ وَأَتْبَاعِهِ، وَأَنْ يُنْزِلُوا بِهِمْ هَزِيمَةً غَيَّرَتْ وَجْهَ التَّارِيخِ.

* * *

لَقَدْ عَرَفَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللّٰهِ عَلَيْهِ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ

---

(١) القيل: الملك أو الرئيس سمي بذلك لأنه إذا قال قولاً نفذ.

قَادِمٌ مِنَ الشَّامِ عَلَىٰ رَأْسِ قَافِلَةٍ تِجَارِيَّةٍ كُبْرَىٰ ، فِيهَا أَلْفُ بَعِيرٍ ؛ مُوَقَرَةٌ(١) بِأَغْلَىٰ نَفَائِسِ الشَّامِ مِمَّا تُحِبُّهُ قُرَيْشٌ وَتُؤْثِرُهُ .

فَوَجَدَهَا الْمُسْلِمُونَ فُرصَةً سَانِحَةً لِلثَّأْرِ لِأَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ الْمُهَاجِرِينَ الَّتِي صَادَرَهَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ فِي مَكَّةَ ، وَلِلظَّفَرِ بِمَا يُقَابِلُ الثَّرَوَاتِ الَّتِي خَلَّفُوهَا إِبَّانَ الْهِجْرَةِ ...

وَلِضَرْبِ مُعَسْكَرِ الشِّرْكِ فِي مَكَّةَ ضَرْبَةً قَاصِمَةً .

عَرَفَ أَبُو سُفْيَانَ أَنَّ مُحَمَّداً وَأَصْحَابَهُ قَدْ خَرَجُوا إِلَىٰ لِقَائِهِ ، فَأَرْسَلَ نَذِيراً إِلَىٰ مَكَّةَ ، يَسْتَنْفِرُهَا لِلْقِتَالِ وَيَدْعُوهَا لِاسْتِنْقَاذِ الْقَافِلَةِ ، وَحِمَايَتِهَا مِنَ الْوُقُوعِ فِي قَبْضَةِ الْمُسْلِمِينَ .

فَهَبَّ أَبُو جَهْلٍ مَدْفُوعاً بِأَحْقَادِهِ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ...

---

(١) موقرة : محملة .

مَشْحُوناً بِكُرْهِهِ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ...

هَبَّ يَشْحَذُ السُّيُوفَ، وَيُثِيرُ النُّفُوسَ، وَيُضْرِمُ نِيرَانَ الصُّدُورِ، وَيُؤَلِّبُ(١) النَّاسَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ.

ثُمَّ جَهَّزَ جَيْشاً كَبِيراً اشْتَرَكَتْ فِيهِ سَائِرُ قَبَائِلِ قُرَيْشٍ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِ جَمِيعُ زُعَمَاءِ مَكَّةَ.

* * *

نَحَرَ(٢) أَبُو جَهْلٍ لِلْجَيْشِ يَوْمَ خُرُوجِهِ مِنْ مَكَّةَ عَشْراً مِنَ النُّوقِ، ثُمَّ تَتَابَعَ مِنْ بَعْدِهِ زُعَمَاءُ قُرَيْشٍ عَلَىٰ إِطْعَامِ الجَيْشِ الَّذِي زَادَ عَدَدُهُ عَلَىٰ أَلْفٍ وَثَلَاثِمِائَةِ فَارِسٍ...

وَفِيمَا كَانَ الجَيْشُ يُغِذُّ السَّيرَ فِي اتِّجَاهِ «بَدْرٍ»، جَاءَهُ رَسُولٌ مِنْ قِبَلِ أَبِي سُفْيَانَ يُخْبِرُهُ بِنَجَاةِ القَافِلَةِ وَيَنصَحُهُ بِالعَوْدَةِ مِنْ حَيْثُ جَاءَ، وَيَقُولُ لِقَادَتِهِ:

---

(١) يؤلب: يشجعهم عَلَىٰ حرب النبي ﷺ.
(٢) نَحَرَ النَّاقَةَ: ذبحها ومنه قوله تعالىٰ ﴿فصل لربك وانحر﴾.

إِنَّمَا خَرَجْتُمْ لِتَمْنَعُوا عِيرَكُمْ، وَرِجَالَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ وَقَدْ نَجَّاهَا اللَّهُ فَارجِعُوا.

لَكِنْ عِنَادَ أَبِي جَهْلٍ وَأَحْقَادَهُ، وَغَطْرَسَتَهُ وَكِبْرِيَاءَهُ أَبَتْ عَلَيْهِ الرُّجُوعَ؛ لَقَدْ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ...

فَأَقْسَمَ بِاللَّاتِ وَالعُزَّىٰ، وَبِكُلِّ صَنَمٍ مِنْ أَصْنَامِ قُرَيْشٍ عَلَىٰ أَلَّا يَعُودَ إِلَىٰ مَكَّةَ؛ حَتَّىٰ يَرِدَ «بَدْراً» وَيُقِيمَ بِهَا ثَلَاثاً...

فَيَنْحَرَ عَلَيْهَا الجُزُرَ[1]، وَيَشْرَبَ عِنْدَهَا الخُمُورَ، وَتَعْزِفَ القِيَانُ لَهُ عَلَىٰ مَائِهَا بِالمَعَازِفِ، وَبِذَلِكَ تَتَحَدَّثُ العَرَبُ بِهِ وَبِقَوْمِهِ فَيَهَابُونَهُمْ أَبَدَ الدَّهْرِ.

* * *

وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنَ التَّصَدُّعِ[2] الَّذِي أَصَابَ جَيْشَ مَكَّةَ، وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنِ انْخِذَالِ الأَخْنَسِ الثَّقَفِيِّ عَنْهُ، وَرُجُوعِهِ بِثَلَاثِمِائَةٍ مِنْ قَوْمِهِ بَنِي «زُهْرَةَ» وَاصَلَ أَبُو جَهْلٍ عِنَادَهُ...

---

(١) الجُزُر: جمع جزور، وهي الناقة. (٢) التصدع: التشقق والتداعي.

زَحَفَ أَبُو جَهْلٍ بِجَيْشِ الشِّرْكِ مُتَّجِهاً نَحْوَ الشَّمَالِ يَجُرُّ أَذْيَالَ الخُيَلَاءِ، وَيَرْتَدِي أَثْوَابَ الكِبْرِيَاءِ... وَقَدْ زَادَهُ صَلَفاً مَا عَرَفَهُ مِنْ أَنَّ مُحَمَّداً وَأَصْحَابَهُ لَا يَزِيدُ عَدَدُهُمْ عَلَىٰ ثَلَاثِمِائَةِ رَجُلٍ، وَلَا تَزِيدُ عُدَّتُهُمْ عَلَىٰ سَبْعِينَ جَمَلاً وَحِصَانَيْنِ.

لَكِنَّ عُمَيْرَ بْنَ وَهْبٍ[١] أَحَدَ دُهَاةِ الحُرُوبِ فِي مَكَّةَ؛ قَالَ لِقَوْمِهِ بَعْدَ أَنِ اطَّلَعَ عَلَىٰ جَيْشِ مُحَمَّدٍ:

يَا قَوْمُ... وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ الحَوَايَا[٢] تَحْمِلُ البَلَايَا[٣]...

رَأَيْتُ قَوْماً مَا مَعَهُمْ مَنَعَةٌ إِلَّا سُيُوفُهُمْ وَلَا مَلْجَأٌ إِلَّا أَجْسَامُهُمْ...

وَاللَّهِ مَا أَرَىٰ أَنْ يُقْتَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّىٰ يُقْتَلَ مِنْكُمْ رَجُلٌ...

---

(١) عمير بن وهب: انظره في كتاب «صور من حياة الصَّحابة» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة المشروعة.

(٢) الحوايا: كساء يوضع عَلَىٰ سنام البعير.

(٣) البلايا: جمع بلية وهي المصيبة التي لا تدفع.

فَانْظُرُوا مَاذَا تَفْعَلُونَ .

أَثَّرَ كَلَامُ « عُمَيْرٍ » فِي الْقَوْمِ فَهَبَّتْ فِي وَجْهِ أَبِي جَهْلٍ مُعَارَضَةٌ جَدِيدَةٌ شَدِيدَةٌ قَادَهَا عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ سَيِّدُ بَنِي « عَبْدِ شَمْسٍ » ، وَقَالَ فِيمَا قَالَهُ :

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ... ارْجِعُوا وَخَلُّوا بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَسَائِرِ الْعَرَبِ ؛ فَإِنْ أَصَابُوهُ فَذَاكَ الَّذِي أَرَدْتُمْ ...

وَإِنْ نَجَا مِنْهُمْ أَلْفَاكُمْ[١] وَقَدْ سَالَمْتُمُوهُ ...

عِنْدَ ذَلِكَ اسْتَشَاطَ[٢] أَبُو جَهْلٍ غَضَباً وَاتَّهَمَ سَيِّدَ بَنِي « عَبْدِ شَمْسٍ » بِالْجُبْنِ ، وَجَرَّدَ سَيْفَهُ مِنْ غِمْدِهِ ، وَضَرَبَ بِهِ مَتْنَ فَرَسِهِ ، وَاسْتَعْجَلَ الْجَيْشَ لِدُخُولِ الْمَعْرَكَةِ خَوْفاً مِنْ قِيَامِ مُعَارَضَةٍ جَدِيدَةٍ ...

* * *

وَجَدَ جَيْشُ مَكَّةَ نَفْسَهُ وَجْهاً لِوَجْهٍ أَمَامَ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ ... فَغَلَى الدَّمُ الْجَاهِلِيُّ فِي الْعُرُوقِ ، وَاتَّقَدَتْ

---

(١) ألفاكم : وجدكم أو لقيكم. (٢) استشاط غضباً : اشتعل.

نَارُ الحِقْدِ فِي الضُّلُوعِ، وَجَمَحَتِ النُّفُوسُ المَشْبُوبَةُ بِالكُرْهِ... وَأَلْقَتْ بِنَفْسِهَا فِي جَحِيمِ المَعْرَكَةِ.

وَالْتَقَىٰ الجَمْعَانِ عَلَىٰ رِمَالِ «بَدْرٍ»، وَشَدَّ المُشْرِكُونَ عَلَىٰ المُسْلِمِينَ شَدَّةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ...

وَتَلَقَّىٰ المُسْلِمُونَ الصَّدْمَةَ بِنُفُوسٍ ظَمْأَىٰ إِلَىٰ الشَّهَادَةِ، وَاحْتَدَمَ[1] الكَرُّ وَالفَرُّ بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ، وَخَشِيَ الرَّسُولُ الكَرِيمُ ﷺ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ فَتَوَجَّهَ إِلَىٰ رَبِّهِ بِالدُّعَاءِ وَرَفَعَ صَوْتَهُ بِالنِّدَاءِ وَهُوَ يَقُولُ:

(اللَّهُمَّ أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ)...

وَأَلْقَىٰ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِنَفْسِهِ فِي لَهِيبِ المَعْرَكَةِ، فَمَا إِنْ رَآهُ أَصْحَابُهُ يَتَقَدَّمُ الصُّفُوفَ حَتَّىٰ الْتَهَبَتْ نُفُوسُهُمْ بِالحَمَاسَةِ، وَانْدَفَعُوا وَرَاءَهُ كَالسَّيْلِ وَهُوَ يُرَدِّدُ: ﴿سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[2].

---

(١) واحتدم الكر والفر: اشتعل القتال، وتحركت الفرسان للأمام والخلف.
(٢) سورة القمر: آية ٤٥ - ٤٦.

فَدَبَّ الهَلَعُ، فِي نُفُوسِ المُشْرِكِينَ، وَأَخَذَتْ جُمُوعُهُمْ بِالفِرَارِ، وَرَكِبَ المُسْلِمُونَ ظُهُورَهُمْ... فَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ، وَفَرِيقاً يَأْسِرُونَ.

لَكِنَّ أَبَا جَهْلٍ تَحَوَّلَ إِلَىٰ ثَوْرٍ هَائِجٍ فَصَمَدَ فِي المَعْرَكَةِ وَجَعَلَ يَقُولُ:

وَاللَّاتِ وَالعُزَّىٰ لَا نَرْجِعُ حَتَّىٰ نُفَرِّقَ مُحَمَّداً وَأَصْحَابَهُ وَنُلْجِئَهُم إِلَىٰ الجِبَالِ.

لَكِنَّ اللَّاتَ وَالعُزَّىٰ لَمْ تَنْصُرْ أَبَا جَهْلٍ؛ فَخَرَّ صَرِيعاً تَنُوشُهُ(١) سُيُوفُ المُسْلِمِينَ...

وتَعْبَثُ بِهَامَتِهِ رِمَاحُ المُسْتَضْعَفِينَ، الَّذِينَ فَرُّوا مِنْ بَطْشِهِ وَأَذَاهُ، وَأَنْجَزَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ...

وَوَلَّىٰ المُشْرِكُونَ الدُّبُرَ، وَقِيلَ سُحْقاً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

* * *

---

(١) تنوشه: تناله من كل جانب.

هَدْمُ الأَصْنَامِ

فِي رَمَضَانَ سَنَةَ ثَمَانٍ لِلْهِجْرَةِ ، وَفِي الخَامِسِ وَالعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ المُعَظَّمِ عَلَىٰ الأَرْجَحِ ...

أَمَرَ الرَّسُولُ الكَرِيمُ ﷺ بِهَدْمِ أَكْبَرِ صَنَمٍ كَانَ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ .

كَانَ الصَّنَمُ الَّذِي هَوَىٰ ، هُوَ « العُزَّىٰ » ...

وَكَانَتِ اليَدُ الَّتِي هَدَمَتْهُ ، هِيَ يَدُ سَيْفِ اللَّهِ خَالِدِ ابْنِ الوَلِيدِ .

وَلِلْعُزَّىٰ وَأَتْرَابِهِ مِنَ الأَصْنَامِ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ ، قِصَّةٌ مُظْلِمَةٌ سَوْدَاءُ طَمَسَ[1] ظَلَامَهَا نُورُ الإِسْلَامِ ...

(١) طمس : أزال آثاره .

وَأَزَالَ قَتَامَهَا[١] إِشْرَاقُ الإِيمَانِ.

* * *

تَبْدَأُ هَذِهِ القِصَّةُ مُنْذُ عَهْدِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ... ذَلِكَ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ اسْتَوطَنَ مَكَّةَ المُكَرَّمَةَ، وَكَثُرَ فِيهَا نَسْلُهُ، وَاتَّسَعَتْ عَلَىٰ مَرِّ الأَيَّامِ ذُرِّيَّتُهُ؛ حَتَّىٰ ضَاقَتْ بِهَا مَكَّةُ عَلَىٰ رَحْبِهَا.

عِنْدَ ذَلِكَ تَفَسَّحَتْ[٢] ذُرِّيَّتُهُ فِي البِلَادِ، وَانْطَلَقُوا فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ يَلْتَمِسُونَ الرِّزْقَ...

وَكَانَ لَا يَظْعَنُ[٣] مِنْهُمْ ظَاعِنٌ عَنْ مَكَّةَ، إِلَّا احْتَمَلَ مَعَهُ حَجَراً مِنْ حِجَارَةِ الحَرَمِ تَعْظِيماً لِبَيْتِ اللَّهِ...

فَإِذَا حَلُّوا فِي مَكَانٍ مِنَ الأَمْكِنَةِ، وَضَعُوا الحَجَرَ فِيهِ، وَطَافُوا بِهِ كَطَوَافِهِمْ بِالكَعْبَةِ صَبَابَةً[٤] بِهَا، وَإِعْظَاماً لَهَا، وَحَنِيناً إِلَيْهَا.

---

(١) أزال قتامها: محا ظلامها.
(٢) تفسحت: انتشرت.
(٣) لا يظعن منهم ظاعن: لا يسافر منهم مسافر.
(٤) صبابة بها: عشقاً لها وحباً.

ثُمَّ غَبَرَ[1] عَلَىٰ ذَلِكَ زَمَنٌ طَوِيلٌ ، وَتَتَابَعَتْ عَلَيْهِ أَجْيَالٌ ...

فَعُبِدَتْ تِلْكَ الأَحْجَارُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ...

وَاتَّخَذَهَا القَوْمُ أَوْثَاناً وَأَرْبَاباً .

هَذَا مَا كَانَ مِنْ شَأْنِ الأَوْثَانِ ...

أَمَّا الأَصْنَامُ فَقَدِ اجْتَلَبَهَا إِلَىٰ جَزِيرَةِ العَرَبِ « عَمْرُو ابْنُ رَبِيعَةَ » ، وَكَانَ حَاجِباً لِلْكَعْبَةِ ، وَسَيِّداً مِنْ سَادَاتِ العَرَبِ .

* * *

مَرِضَ عَمْرٌو هَذَا مَرَضاً شَدِيداً فَقِيلَ لَهُ : إِنَّ « بِالبَلْقَاءِ » مِنْ بِلَادِ الشَّامِ حَمَّةً[2] إِنْ أَتَيْتَهَا بَرِئْتَ ...

فَأَتَاهَا فَاسْتَحَمَّ بِهَا فَبَرِئَ ، وَوَجَدَ أَهْلَهَا يَعْبُدُونَ الأَصْنَامَ ؛ فَقَالَ : مَا هَذِهِ ؟

---

(١) غبر : أي مضى .

(٢) حمّة : أيْ عينُ ماءٍ حارٌ .

فَقَالُوا: نَسْتَسْقِي[1] بِهَا المَطَرَ، وَنَسْتَنْصِرُ[2] بِهَا عَلَىٰ العَدُوِّ، فَسَأَلَهُمْ أَنْ يُعْطُوهُ مِنْهَا فَفَعَلُوا...

فَقَدِمَ بِهَا إِلَىٰ مَكَّةَ وَنَصَبَهَا حَوْلَ الكَعْبَةِ.

* * *

وَكَانَ أَقْدَمَ أَصْنَامِ العَرَبِ «مَنَاةُ»...

دُعِيَ كَذَلِكَ لِأَنَّ الدِّمَاءَ كَانَتْ تُمْنَىٰ[3] عِنْدَهُ تَقَرُّباً إِلَيْهِ، وَإِعْظَاماً لَهُ...

وَكَانَ «مَنَاةُ» مَنْصُوباً عَلَىٰ سَاحِلِ البَحْرِ، بَيْنَ مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ، وَكَانَتِ العَرَبُ تُجِلُّهُ وَتَهَابُهُ، وتُسَمِّي أَوْلَادَهَا بِهِ، مِنْ ذَلِكَ «عَبْدُ مَنَاةَ» وَ«زَيْدُ مَنَاةَ»...

وَكَانَ أَشَدَّ النَّاسِ إِعْظَاماً لَهُ الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ[4].

* * *

---

(١) نستسقي بها: نطلب بها المطر في وقت الجدب.

(٢) نستنصر بها: نطلب منها النصر في وقت القتال.

(٣) تُمْنَىٰ عنده: أيْ تُرَاقُ عنده.

(٤) الخزرج: قبيلة عربية يمانية ارتحلت وأختها الأوس إِلَىٰ الحجاز بعد خراب سَدِّ مأرب واستوطنت المدينة.

ثُمَّ اتَّخَذَتِ العَرَبُ « اللَّاتَ » بَعْدَ « مَنَاةَ » ...

وَأَصْلُ « اللَّاتِ » صَخْرَةٌ مُرَبَّعَةٌ بِالطَّائِفِ كَانَ يَجْلِسُ عَلَيْهَا يَهُودِيٌّ يَلُتُّ السَّوِيقَ[1] لِلنَّاسِ لِيَأْكُلُوهُ طَرِيًّا ، وَكَانَ النَّاسُ يُنَادُونَهُ « اللَّاتُّ » ...

فَلَمَّا مَاتَ اليَهُودِيُّ ؛ بَنَتْ « ثَقِيفٌ » فَوْقَ الصَّخْرَةِ لِنَفْسِهَا كَعْبَةً وَصَنَماً ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ وَسَائِرُ العَرَبِ تُعَظِّمُ « اللَّاتَ » ، وَبِهَا سَمَّوْا أَوْلَادَهُمْ فَقَالُوا :

« زَيْدُ اللَّاتِ » وَ« تَيْمُ اللَّاتِ » .

* * *

ثُمَّ اتَّخَذَ العَرَبُ « العُزَّىٰ » بَعْدَ ذَٰلِكَ ...

بَنَوْهَا بِأَرْضِ « نَخْلَةَ » عَلَىٰ بُعْدِ تِسْعَةِ أَمْيَالٍ مِنْ مَكَّةَ ، وَكَانَتِ « العُزَّىٰ » أَعْظَمَ الأَصْنَامِ عِنْدَ قُرَيْشٍ ، بَنَتْ فَوْقَهَا بَيْتاً لِيُضَاهِيَ الكَعْبَةَ ، وَحَمَتْ لَهَا حَرَماً يُضَاهُونَ بِهِ الحَرَمَ المَكِّيَّ ، وَأَقَامُوا عِنْدَهَا مَنْحَراً[2] يَنْحَرُونَ فِيهِ الهَدْيَ .

---

(١) يلت السويق : يعجن الدقيق ليصير سويقاً . (٢) منحراً : مذبحاً .

وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تَخُصُّ « العُزَّىٰ » بِالإِعْظَامِ ، فَإِذَا طَافَتْ بِالكَعْبَةِ قَالَتْ :

وَاللَّاتِ وَالعُزَّىٰ وَمَنَاةِ الثَّالِثَةِ الأُخْرَىٰ ، فَإِنَّهُنَّ الغَرَانِيقُ(١) العُلَىٰ ، وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَىٰ(٢) ...

وَكَانُوا يَقُولُونَ عَنْ هَذِهِ الأَصْنَامِ الثَّلَاثَةِ « بَنَاتُ اللَّهِ » ، تَعَالَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ عُلُوًّا كَبِيراً .

* * *

وَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِالهُدَىٰ وَدِينِ التَّوحِيدِ عَابَ « العُزَّىٰ » فِي جُمْلَةِ مَا عَابَهُ مِنْ أَصْنَامِ قُرَيْشٍ ...

فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، حَتَّىٰ أَنَّ سَعِيدَ بْنَ العَاصِ(٣) لَمَّا مَرِضَ المَرَضَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ دَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو لَهَبٍ

---

(١) الغرانيق : الغرنوق الشاب الأبيض الجميل ، جمعه غرانيق ، وفي الكلام تشبيه للأصنام بالشباب والحسن .

(٢) شفاعتهن لترتجىٰ : جعلوها في مكانة الآلهة الجديرة بالدعاء وطلب شفاعتها .

(٣) سعيد بن العاص هو والد الصحابي الجليل خالد بن سعيد بن العاص ... انظره في كتاب « صور من حياة الصّحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

يَعُودُهُ فَوَجَدَهُ يَبْكِي ، فَقَالَ :

مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا أُحَيْحَةَ ؟ ... أَمِنَ الْمَوْتِ تَبْكِي وَلَابُدَّ مِنْهُ !!

قَالَ : لَا ... وَلَكِنِّي أَخَافُ أَلَّا تُعْبَدَ « الْعُزَّىٰ » مِنْ بَعْدِي .

قَالَ أَبُو لَهَبٍ : وَاللَّهِ مَا عُبِدَتْ فِي حَيَاتِكَ مِنْ أَجْلِكَ ؛ حَتَّىٰ تُتْرَكَ عِبَادَتُهَا بَعْدَ مَوْتِكَ .

فَقَالَ أَبُو أُحَيْحَةَ : الآنَ عَلِمْتُ أَنَّ لِي خَلِيفَةً يَحْمِيهَا مِنْ بَعْدِي .

* * *

وَكَانَتْ لِقُرَيْشٍ أَصْنَامٌ أُخْرَىٰ فِي جَوْفِ[1] الْكَعْبَةِ ، وَكَانَ أَعْظَمَهَا « هُبَلُ » ... وَكَانَ « هُبَلُ » مِنْ عَقِيقٍ أَحْمَرَ عَلَىٰ صُورَةِ إِنْسَانٍ ، وَقَدْ كَانَ مَكْسُورَ الْيَدِ الْيُمْنَىٰ فَجَعَلُوا لَهُ يَداً مِنْ ذَهَبٍ .

---

(١) جوف الكعبة : داخل الكعبة .

وَكَانَ أَمَامَ «هُبَلَ» سَبْعَةُ أَقْدَاحٍ[1] مَكْتُوبٌ فِي أَوَّلِهَا صَرِيحٌ، وفِي الآخَرِ مُلْصَقٌ...

فَإِذَا شَكَّ أَحَدٌ فِي مَولُودٍ... أَهْدَوْا لِهُبَلَ هَدِيَّةً ثُمَّ ضَرَبُوا بِالقِدَاحِ...

فَإِنْ خَرَجَ «صَرِيحٌ» أَلْحَقُوا المَولُودَ بِأَبِيهِ...

وَإِنْ خَرَجَ «مُلْصَقٌ» نَفَوْهُ عَنْهُ.

* * *

وَكَانَ لِكُلِّ أَهْلِ دَارٍ مِنْ مَكَّةَ صَنَمٌ فِي دَارِهِمْ يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ...

فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ السَّفَرَ كَانَ آخِرَ مَا يَصْنَعُ فِي مَنْزِلِهِ أَنْ يَتَمَسَّحَ بِهِ... وَإِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرِهِ كَانَ أَوَّلَ مَا يَصْنَعُ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلَهُ أَنْ يَتَمَسَّحَ بِهِ.

فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّداً بِتَوحِيدِ اللَّهِ، وَإِفْرَادِهِ بِالعِبَادَةِ قَالُوا:

---

(١) الأقداح: جمع مفردها قدح، وهو سهم يضرب ويتصرفون حسب ما تنبأ به.

أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً ؛ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ .

وَكَانَ الرَّجُلُ مِنَ العَرَبِ إِذَا سَافَرَ فَنَزَلَ فِي مَكَانٍ ، أَخَذَ أَرْبَعَةَ أَحْجَارٍ فَنَظَرَ إِلَىٰ أَحْسَنِهَا فَاتَّخَذَهُ رَبًّا ...

وَجَعَلَ الثَّلَاثَةَ البَاقِيَةَ مَوْقِداً يَضَعُ فَوقَهُ قِدْرَهُ وَيَطْهُو عَلَيْهِ طَعَامَهُ .

* * *

وَلَمْ تَخْلُ عِبَادَةُ العَرَبِ لِهَذِهِ الأَوْثَانِ مِنْ طَرَائِفَ ، مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ مَرَّ بِصَنَمٍ مِنْ هَذِهِ الأَصْنَامِ المَنْصُوبَةِ ، فَوَجَدَ ثُعْلُبَاناً[١] يَقِفُ إِلَىٰ جَنْبِ الصَّنَمِ وَيَبُولُ عَلَىٰ رَأْسِهِ ، فَقَالَ :

أَرَبٌّ يَبُولُ الثُّعْلُبَانُ بِرَأْسِهِ

لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ

وَمِنْهَا أَنَّ « امْرَأَ القَيْسِ بْنَ حِجرٍ » جَاءَ الصَّنَمَ يَوْمَ قُتِلَ أَبُوهُ ، فَرَمَىٰ القِدَاحَ بَيْنَ يَدَيْهِ لِيَسْتَفْتِيَهُ فِي الثَّأْرِ لِأَبِيهِ ؛

(١) ثُعْلُبَاناً : ثعلب .

فَخَرَجَ الزَّاجِرُ الَّذِي يَنْهَاهُ عَنِ الأَخْذِ بِثَأْرِ أَبِيهِ...

فَلَكَزَ(١) الصَّنَمَ بِقَدَمِهِ، وَسَبَّهُ وَشَتَمَهُ، وَقَالَ لَهُ:

لَوْ أَنَّ أَبَاكَ قُتِلَ لَقُلْتَ غَيْرَ هَذَا.

وَقَدِمَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي «مِلْكَانَ» بِإِبِلِهِ عَلَىٰ صَنَمٍ لِقَوْمِهِ كَانَ يُدْعَىٰ «سَعْداً» وَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يَقِفَهَا عَلَيْهِ ابْتِغَاءَ بَرَكَتِهِ...

فَلَمَّا رَأَتِ الإِبِلُ الصَّنَمَ نَفَرَتْ(٢) مِنَ الدَّمِ الَّذِي كَانَ يُرَاقُ عِنْدَهُ، وَتَفَرَّقَتْ فِي كُلِّ مَكَانٍ...

فَغَضِبَ الأَعْرَابِيُّ وَتَنَاوَلَ حَجَراً فَرَمَىٰ بِهِ الصَّنَمَ وَقَالَ:

أَتَيْنَا إِلَىٰ سَعْدٍ لِيَجْمَعَ شَمْلَنَا

فَشَتَّتَنَا سَعْدٌ، فَلَا نَحْنُ مِنْ سَعْدِ

---

(١) فلكز: ضربه بقدمه.
(٢) نفرت: أجفلت وتفرقت.

وَهَلْ سَعْدُ إِلَّا صَخْرَةٌ بِتَنُوفَةٍ[1]

مِنَ الأَرْضِ لَا يَدْعُو لِغَيٍّ وَلَا رُشْدِ

* * *

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ عَمْرَو بْنَ الجَمُوحِ[2] وَهُوَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِ « سَلَمَةَ » كَانَ قَدِ اتَّخَذَ فِي دَارِهِ صَنَماً ...

فَلَمَّا أَسْلَمَ فِتْيَانُ « سَلَمَةَ » وَشَهِدُوا مَعَ آبَائِهِمْ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ وَعَادُوا إِلَىٰ « يَثْرِبَ » ، كَانُوا إِذَا أَظْلَمَ اللَّيْلُ يَدْخُلُونَ دَارَ عَمْرٍو وَيَحْمِلُونَ صَنَمَهُ ، وَيَطْرَحُونَهُ فِي حُفْرَةٍ يَجْتَمِعُ فِيهَا غَائِطُ بَنِي « سَلَمَةَ » ، فَإِذَا أَصْبَحَ عَمْرٌو قَالَ :

وَيْلَكُمْ ، مَنْ عَدَا عَلَىٰ آلِهَتِنَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ ؟! ...

ثُمَّ يَغْدُو يَلْتَمِسُهُ حَتَّىٰ إِذَا وَجَدَهُ غَسَلَهُ وَطَيَّبَهُ ثُمَّ يَقُولُ لَهُ :

---

(١) تَنُوفَة : صحراء خالية .

(٢) عمرو بن الجموح : انظره في كتاب « صور من حياة الصَّحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمُ مَنْ فَعَلَ هَذَا بِكَ لَأَخْزَيْتُهُ.

فَإِذَا أَمْسَىٰ وَنَامَ غَدَوْا عَلَيْهِ وَفَعَلُوا بِصَنَمِهِ مِثْلَ ذَلِكَ... فَيَغْدُو يَبْحثُ عَنْهُ فَيَجِدُ بِهِ مِثْلَ مَا كَانَ مِنَ الأَذَىٰ، فَيَغْسِلُهُ وَيُطَهِّرُهُ وَيُطَيِّبُهُ، ثُمَّ جَاءَ بِسَيْفِهِ فَعَلَّقَهُ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ:

وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَعْلَمُ مَنْ يَصْنَعُ بِكَ مَا تَرَىٰ فَإِنْ كَانَ فِيكَ خَيْرٌ فَادْفَعْ عَنْ نَفْسِكَ وَهَذَا السَّيْفُ مَعَكَ...

فَلَمَّا أَمْسَىٰ وَنَامَ؛ عَدَوْا عَلَيْهِ فَأَخَذُوا السَّيْفَ مِنْ عُنقِهِ، ثُمَّ أَخَذُوا كَلْباً مَيِّتاً فَقَرَنُوهُ بِهِ بِحَبْلٍ ثُمَّ أَلْقَوْهُ فِي بِئْرٍ مِنْ آبَارِ بَنِي «سَلَمَةَ»، فَغَدَا عَمْرٌو فَلَمْ يَجِدْهُ فِي مَكَانِهِ وَإِنَّمَا وَجَدَهُ فِي البِئْرِ مُنَكَّساً مَقْرُوناً بِكَلْبٍ مَيِّتٍ... فَكَلَّمَهُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِ، وَدَعَوْهُ إِلَىٰ الإِسْلَامِ فَأَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، ثُمَّ قَالَ يَشْكُرُ اللَّهَ إِذْ أَنْقَذَهُ مِمَّا كَانَ فِيهِ مِنَ العَمَىٰ وَالضَّلَالَةِ:

وَاللَّهِ لَوْ كُنْتَ إِلَهاً لَمْ تَكُنْ
أَنْتَ وَكَلْبٌ وَسطَ بِئْرٍ فِي قَرَنْ

الحَمْدُ لِلَّهِ العَلِيِّ ذِي المِنَنْ
الوَاهِبِ الرَّزَّاقِ دَيَّانِ الدِّيَنْ
هُوَ الَّذِي أَنْقَذَنِي مِنْ قَبْلِ أَنْ
أَكُونَ فِي ظُلْمَةِ قَبْرٍ مُرْتَهَنْ

* * *

ظَلَّتْ جُلُّ هَذِهِ الأَصْنَامِ تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ، حَتَّىٰ فَتَحَ اللَّهُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ الفَتْحَ المُبِينَ، فَكَانَ ذَٰلِكَ إِيذَاناً بِإِدَالَةِ دَوْلَةِ الأَصْنَامِ، وَإِزَالَةِ مَعَالِمِ الشِّرْكِ...

وَكَانَ مِنْ فَضْلِ رَمَضَانَ أَنْ هُدِّمَتْ فِي أَيَّامِهِ الغُرِّ[1] سَائِرُ الأَصْنَامِ...

* * *

فَفِي العِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةَ ثَمَانٍ لِلْهِجْرَةِ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ فَاتِحاً؛ فَيَمَّمَ

(١) الغر: جمع الأغر، وهو الحسن الجميل.

وَجَهَهُ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَكَانَتِ الأَصْنَامُ مَنْصُوبَةً حَوْلَ الكَعْبَةِ...

فَأَخَذَ طَرَفَ رُمْحِهِ، وَجَعَلَ يَطْعَنُهَا فِي عُيُونِهَا وَوُجُوهِهَا فَتَهْوِي تَحْتَ قَدَمَيْهِ وَهُوَ يُرَدِّدُ:

﴿جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾(١)...

ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَكُفِئَتْ عَلَىٰ وُجُوهِهَا وَأُخْرِجَتْ مِنَ المَسْجِدِ وَأُضْرِمَتْ فِيهَا النَّارُ وَكَانَ عَلَىٰ رَأْسِهَا «هُبَلُ».

* * *

وَفِي الرَّابِعِ وَالعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةَ ثَمَانٍ لِلْهِجْرَةِ، بَعَثَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَعْدَ بْنَ زَيْدٍ الأَشْهَلِي إِلَىٰ «مَنَاةَ»...

فَهَدَمَهَا، وَلَمْ يَجِدْ فِي خِزَانَتِهَا شَيْئًا.

* * *

---

(١) سورة الإسراء: آية ٨١.

وَفِي الخَامِسِ وَالعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ ، أَرْسَلَ النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ فِي ثَلَاثِينَ فَارِساً مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَأَمَرَهُمْ بِهَدْمِ « العُزَّىٰ » ، وَكَانَ سَدَنَتُهَا[1] وَحُجَّابُهَا مِنْ بَنِي « شَيْبَانَ » ... فَلَمَّا سَمِعَ سَادِنُهَا بِمَسِيرِ خَالِدٍ إِلَيْهِ ، عَلَّقَ سَيْفاً عَلَيْهَا وَأَنْشَدَهَا قَوْلَهُ :

أَيَا عُزُّ شُدِّي شَدَّةً لَا شَوَىٰ لَهَا[2]
عَلَىٰ خَالِدٍ أَلْقِي القِنَاعَ وَشَمِّرِي
أَيَا عُزُّ إِنْ لَمْ تَقْتُلِي المَرْءَ خَالِداً
فَبُوئِي بِإِثْمٍ عَاجِلٍ ، أَوْ تَنَصَّرِي[3]

فَلَمَّا انْتَهَىٰ إِلَيْهَا خَالِدٌ هَدَمَهَا وَهُوَ يُرَدِّدُ :

يَا عُزُّ كُفْرَانَكِ لَا سُبْحَانَكِ
إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكِ

(١) سدنتها : الخدام الذين يقومون بأمرها .
(٢) لا شوىٰ لها : أي لا تبقي عَلَىٰ شيء .
(٣) أو تنصري : ادخلي في دين النصارىٰ .

ثُمَّ عَادَ خَالِدٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فَأَخْبَرَهُ بِهَدْمِ « العُزَّىٰ » وَقَالَ لَهُ :

« الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَكْرَمَنَا بِكَ ، وَأَنْقَذَنَا مِنَ الهَلَكَةِ ، لَقَدْ كُنْتُ أَرَىٰ أَبِي يَأْتِي « العُزَّىٰ » ، وَهُوَ يَحْمِلُ إِلَيْهَا خَيرَ مَالِهِ مِنَ الإِبِلِ وَالغَنَمِ فَيَذْبَحُهَا لِلْعُزَّىٰ ، ثُمَّ يُقِيمُ عِنْدَهَا ثَلَاثاً ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ إِلَيْنَا مَسْرُوراً ، وَنَظَرتُ إِلَىٰ مَا مَاتَ عَلَيْهِ أَبِي ، وَكَيْفَ خُدِعَ حَتَّىٰ صَارَ يَذْبَحُ لِمَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ » .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (إِنَّ هَذَا الأَمْرَ إِلَىٰ اللَّهِ فَمَنْ يَسَّرَهُ لِلْهُدَىٰ تَيَسَّرَ لَهُ ، وَمَنْ يَسَّرَهُ لِلضَّلَالَةِ كَانَ فِيهَا) .

* * *

وَفِي رَمَضَانَ سَنَةَ تِسْعٍ لِلْهِجْرَةِ ، وَفَدَتْ « ثَقِيفٌ » صَاحِبَةُ « اللَّاتِ » عَلَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ تَعْرِضُ إِسْلَامَهَا عَلَيْهِ ، وَيَسْأَلُونَهُ أَنْ يَتْرُكَ لَهُمْ « اللَّاتَ » ثَلَاثَ سِنِينَ لَا يَهْدِمُهَا ...

فَأَبَىٰ الرَّسُولُ ﷺ ذَلِكَ ، فَمَا بَرِحُوا يَسْأَلُونَهُ سَنَةً سَنَةً وَيَأْبَىٰ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ؛ حَتَّىٰ سَأَلُوا شَهْراً وَاحِداً ، فَأَبَىٰ عَلَيْهِمْ أَنْ يَدَعَهَا شَيْئًا مُسَمًّى ، وَأَصَرَّ عَلَىٰ هَدْمِهَا ، فَسَأَلُوهُ أَلَّا يَهْدِمُوهَا بِأَيْدِيهِمْ ... فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

(أَمَّا كَسْرُ أَوْثَانِكُمْ بِأَيْدِيكُمْ فَسَنُعْفِيكُمْ مِنْهُ) .

ثُمَّ أَرْسَلَ الرَّسُولُ ﷺ مَعَهُمْ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ ، وَالْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ لِهَدْمِ « اللَّاتِ » ، فَلَمَّا بَلَغَا « الطَّائِفَ » خَرَجَتْ نِسَاءُ « ثَقِيفٍ » حُسَّراً[١] يَبْكِينَ آلِهَتَهُنَّ ، وَيَنْدُبْنَهَا وَيُزْرِينَ عَلَىٰ رِجَالِهِنَّ الَّذِينَ أَسْلَمُوهَا .

وَلَمَّا هَمَّ الْمُغِيرَةُ بِهَدْمِهَا قَالَ لِأَبِي سُفْيَانَ :

أَلَا أُضْحِكُكَ مِنْ ثَقِيفٍ ؟

قَالَ : بَلَىٰ ...

فَأَخَذَ الْفَأْسَ وَضَرَبَ بِهِ « اللَّاتَ » ضَرْبَةً وَاحِدَةً ، ثُمَّ صَاحَ وَخَرَّ[٢] عَلَىٰ وَجْهِهِ كَأَنَّهُ صُعِقَ ... فَارْتَجَّتِ

---

(١) حسراً : سافرات.

(٢) خر : انكب ووقع مرتعداً .

« الطَّائِفُ » بِالصَّبَاحِ سُرُوراً بِأَنَّ « اللَّاتَ » قَدْ صَرَعَتِ الـمُغِيرَةَ ، وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ يَقُولُونَ :

وَيْحَكَ ، كَيْفَ رَأَيْتَهَا ؟! إِنَّهَا تَهْلِكُ مَنْ عَادَاهَا ... إِنَّهَا تَهْلِكُ مَنْ عَادَاهَا .

فَقَامَ الـمُغِيرَةُ يَضْحَكُ مِنَ القَوْمِ ، وَيَهْزَأُ مِنْ حُمْقِهِمْ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ « اللَّاتِ » يَضْرِبُهَا بِمِعْوَلِهِ ، وَهُوَ يَقُولُ : « اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ ... لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، أَحَدٌ فَرْدٌ صَمَدٌ » .

فَهَنِيئًا لِلْمُسْلِمِينَ بِرَمَضَانَ ...

هَنِيئًا لَهُمْ بِأَيَّامِهِ الغُرِّ ...

فَفِيهَا اسْتُخْزِيَتِ(١) الأَوْثَانُ ...

وَفِيهَا اجْتُثَّتِ(٢) الأَصْنَامُ .

* * *

---

(١) استخزت : أصابها الخزي والهوان .

(٢) اجتثت : اقتلعت من جذورها .

إِسْلَامُ بَنِي ثَقِيفٍ

فِي رَمَضَانَ سَنَةَ تِسْعٍ لِلْهِجْرَةِ ، قَرَّتْ عَيْنُ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِإِسْلَامِ « ثَقِيفٍ » بَعْدَ إِبَاءٍ عَنِيدٍ ...

وَنُفُورٍ جَامِحٍ دَامَ عِشْرِينَ عَاماً .

وَتَارِيخُ الدَّعْوَةِ الإِسْلَامِيَةِ ، يَرْوِي لِثَقِيفٍ وَإِسْلَامِهَا قِصَّةً قَاتِمَةَ البِدَايَةِ ؛ مُشْرِقَةَ النِّهَايَةِ .

* * *

تَبْدَأُ هَذِهِ القِصَّةُ مُنْذُ الجَاهِلِيَّةِ حَيْثُ كَانَتْ « ثَقِيفٌ » تَسْكُنُ « الطَّائِفَ » ...

وَالطَّائِفُ رَبَضٌ (١) مِنْ أَرْبَاضِ مَكَّةَ ، مُمَنَّعَةُ الحُصُونِ عَالِيَةُ الذُّرَىٰ ...

---

(١) ربض : قرية كثيرة السكان .

مُعْتَصِمَةٌ بِالجِبَالِ الشَّوَامِخِ لَا يُرَامُ حِمَاهَا، وَلَا تُنَالُ ذُرَاهَا.

وَهِيَ إِلَىٰ ذَلِكَ رَوْضَةٌ نَاضِرَةُ الجَنَّاتِ؛ بَرُودُ النَّسَمَاتِ... كَثِيرَةُ الفَاكِهَةِ، طَيِّبَةُ الجَنَىٰ، دَانِيَةُ القُطُوفِ.

* * *

كَانَتْ أَغْلَبُ مَسَاكِنِ «الطَّائِفِ» لِبَنِي «ثَقِيفٍ»، وَكَانَتْ فِيهَا السِّيَادَةُ وَالجَاهُ، فَهُمْ قَوْمٌ شُمُّ الأُنُوفِ، بِيضُ الوجُوهِ، كِرَامُ الأَحْسَابِ...

وَهُمْ إِلَىٰ ذَلِكَ أَرْبَابُ[1] جَاهِلِيَّةٍ جُهْلَاءَ، وَعَبَدَةُ أَصْنَامٍ... بَنَوْا «لِلَّاتِ» كَعْبَةً كُبْرَىٰ لِيَحُجُّوا إِلَيْهَا، وَيَطُوفُوا حَوْلَهَا، وَيُقَرِّبُوا إِلَيْهَا القَرَابِينَ[2].

* * *

وَلَمَّا أَرْسَلَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِدِينِ الهُدَىٰ وَالحَقِّ،

---

(١) أرباب جاهلية: أصحاب الجاهلية.

(٢) القرابين: ما يتقرب به إلى الإله، واحدها قربان.

وَأَمَرَهُ أَنْ يُنْذِرَ عَشِيرَتَهُ الأَقْرَبِينَ صَدَعَ[1] بِالأَمْرِ، وَجَهَرَ بِالحَقِّ...

فَتَصَدَّتْ لَهُ قُرَيْشٌ بِالأَذَىٰ وَالتَّنْكِيلِ[2]...

فَمَا لَانَتْ لَهُ قَنَاةٌ وَلَا وَهَنَ لَهُ عَزْمٌ، وَإِنَّمَا جَعَلَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَىٰ القَبَائِلِ لِيَمْنَعُوهُ حَتَّىٰ يُبَلِّغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ.

* * *

وَقَبْلَ الهِجْرَةِ بِسَنَوَاتٍ ثَلَاثٍ؛ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِخَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ...

ثُمَّ مَاتَ بَعْدَهَا عَمُّ الرَّسُولِ أَبُو طَالِبٍ.

فَكَلِبَتْ[3] قُرَيْشٌ فِي أَذَىٰ الرَّسُولِ ﷺ...

وَأَقْدَمَ سُفَهَاؤُهَا عَلَيْهِ إِقْدَاماً شَدِيداً.

عِنْدَ ذَلِكَ يَمَّمَ[4] الرَّسُولُ ﷺ وَجْهَهُ شَطْرَ

---

(١) صدع: جهر.
(٢) التنكيل: البطش.
(٣) فكلبت قريش على الرسول: اشتدت عليه وألحت في إيذائه.
(٤) يمم وجهه شطر الطائف: توجه نحو الطائف.

« الطَّائِفِ » يَلْتَمِسُ النُّصْرَةَ مِنْ « ثَقِيفٍ » ، وَيَنْشُدُ عِنْدَهَا المَنَعَةَ مِنْ قَوْمِهِ ، وَيَرْجُو أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُ دَعْوَتَهُ ؛ فَتَعِزَّ بِالإِسْلَامِ ، وَيَعِزَّ بِهَا الإِسْلَامُ .

وَمَا إِنْ بَلَغَ الرَّسُولُ ﷺ الطَّائِفَ ، حَتَّىٰ عَمَدَ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ نَفَرٍ مِنْ سَادَتِهَا هُمْ : « عَبْدُ يَالِيلَ بْنُ عَمْرٍو » ، وَأَخَوَاهُ حَبِيبٌ ، وَمَسْعُودٌ ...

فَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ اللَّهِ ، وَرَغَّبَهُمْ بِثَوَابِهِ ، وَأَنْذَرَهُمْ مِنْ عِقَابِهِ .

فَاسْتَكْبَرَ مِنْهُمْ مَنِ اسْتَكْبَرَ ، وَسَخِرَ مِنْهُمْ مَنْ سَخِرَ ...

فَقَالَ أَحَدُهُمْ لِلرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ :

« مَزَّقْتُ ثِيَابَ الكَعْبَةِ إِنْ كَانَ اللَّهُ أَرْسَلَكَ » ...

وَقَالَ الثَّانِي :

« أَمَا وَجَدَ اللَّهُ أَحَداً يُرْسِلُهُ غَيْرَكَ ؟! » ...

وَقَالَ الثَّالِثُ ـ سَاخِراً ـ :

« وَاللَّهِ لَا أُكَلِّمُكَ أَبَداً ، لَئِنْ كُنتَ رَسُولاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ كَمَا تَقُولُ فَأَنْتَ أَعْظَمُ خَطَراً مِنْ أَنْ أَرُدَّ عَلَيْكَ الكَلَامَ ، وَلَئِنْ كُنتَ تَكْذِبُ عَلَىٰ اللَّهِ فَمَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أُكَلِّمَكَ » .

عِنْدَئِذٍ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْهُمْ كَاسِفَ البَالِ مَحْزُونَ النَّفْسِ ، وَقَدْ كَرِهَ أَنْ يَبْلُغَ ذَلِكَ قَوْمَهُ فَيَشْتَدُّوا فِي أَذَاهُ ، فَسَأَلَهُمْ أَنْ يَكْتُمُوا خَبَرَهُ مَعَهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا .

* * *

لَقَدْ أَغْرَوْا بِهِ سُفَهَاءَهُمْ ، وَأَقْعَدُوا لَهُ فِي طَرِيقِهِ صَفَّيْنِ مِنْ أَشْرَارِهِمْ وَبِأَيْدِيهِمُ الحِجَارَةُ ...

فَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بَيْنَهُمْ جَعَلُوا كُلَّمَا رَفَعَ رِجْلاً يَرْضَخُونَهَا[1] بِالحِجَارَةِ ، وَكُلَّمَا وَضَعَ

---

(١) يرضخونها : يرمونها .

رِجْلاً يَرْضَخُونَهَا بِالحِجَارَةِ وَهُمْ يَسُبُّونَهُ، وَيَعِيبُونَهُ وَيَصِيحُونَ بِهِ...

فَتَمَزَّقَتْ قَدَمَاهُ، وَدَمِيَ كَعْبَاهُ، وَمَا زَالُوا بِهِ حَتَّىٰ جَمَعُوا عَلَيْهِ النَّاسَ، وَأَلْجَؤُوهُ إِلَىٰ بُسْتَانٍ لِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَأَخِيهِ شَيْبَةَ، وَكَانَا مِنْ قُرَيْشٍ، ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْهُ...

* * *

جَلَسَ الرَّسُولُ الكَرِيمُ ﷺ إِلَىٰ ظِلِّ شَجَرَةٍ - وَقَدْ بَلَغَ مِنْهُ الجَهْدُ مَبْلَغَهُ - وَرَفَعَ طَرْفَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَقَالَ:

(اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَىٰ النَّاسِ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ...

أَنْتَ رَبُّ المُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَىٰ مَنْ تَكِلُنِي ؟!...

إِلَىٰ بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي(١) أَمْ إِلَىٰ عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي ؟...

---

(١) يتجهمني: يعبس في وجهي وينفر مني.

إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي ، وَلَكِنْ عَافِيَتُكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي ...

أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سُخْطُكَ[1] ...

لَكَ العُتْبَىٰ حَتَّىٰ تَرْضَىٰ ...

وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ) .

فَلَمَّا رَآهُ ابْنَا رَبِيعَةَ عَلَىٰ هَذِهِ الحَالِ ...

تَحَرَّكَتْ لَهُ رَحِمُهُمَا[2] - وَكَانَا مِنْ قُرَيْشٍ - فَدَعَوْا غُلَاماً لَهُمَا يُقَالُ لَهُ « عَدَّاسٌ » - وَكَانَ نَصْرَانِيًّا - وَقَالَا لَهُ :

خُذْ قِطْفاً[3] مِنْ هَذَا العِنَبِ فَضَعْهُ فِي هَذَا الطَّبَقِ ثُمَّ اذْهَبْ بِهِ إِلَىٰ ذَلِكَ الرَّجُلِ وَقُلْ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ .

* * *

(١) سخطك : غضبك وعقابك .
(٢) تحركت له رحمهما : تذكرا القرابة التي تجمعهم به ولانا له .
(٣) قطفاً من العنب : أيْ عُنقُوداً .

أَقْبَلَ «عَدَّاسٌ» عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَوَضَعَ الطَّبَقَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَمَّا مَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَ مِنْهُ قَالَ: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)...

فَنَظَرَ «عَدَّاسٌ» فِي وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ:

وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا الكَلَامَ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ البِلَادِ؟!

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

(وَمِنْ أَهْلِ أَيِّ البِلَادِ أَنْتَ يَا عَدَّاسُ؟...

وَمَادِينُكَ؟)

قَالَ: نَصْرَانِيٌّ مِنْ أَهْلِ «نِينَوَىٰ»[1].

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ:

(مِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ؟)

فَقَالَ «عَدَّاسٌ»: وَمَا يُدْرِيكَ مَا يُونُسُ بْنُ مَتَّىٰ؟!

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

---

(١) نينوىٰ: مدينة في العراق.

(ذَاكَ أَخِي ، كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ) ...

عِنْدَ ذَلِكَ أَكَبَّ « عَدَّاسٌ » عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُقَبِّلُ رَأْسَهُ ، وَيَدَيْهِ ، وَقَدَمَيْهِ ، فَلَمَّا رَآهُ سَيِّدَاهُ قَالَا :

وَيْلَكَ يَا « عَدَّاسُ » ، مَالَكَ تُقَبِّلُ رَأْسَ هَذَا الرَّجُلِ وَيَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ ؟!

قَالَ : يَا سَيِّدَيَّ ، مَا فِي الأَرْضِ شَيْءٌ خَيْرٌ مِنْ هَذَا .

قَالَا : وَيْحَكَ[1] يَا « عَدَّاسُ » !!... لَا يَصْرِفَنَّكَ عَنْ دِينِكَ فَإِنَّ دِينَكَ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ .

* * *

انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنَ الطَّائِفِ وَقَدْ يَئِسَ مِنْ خَيْرِ « ثَقِيفٍ » ، وَتَوَجَّهَ نَحْوَ مَكَّةَ مَهْمُوماً مَحْزُوناً بَعْدَ أَنْ لَقِيَ يَوْماً لَمْ يَلْقَ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ .

فَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ :

---

(١) ويحك : ويلك .

هَلْ أَتَىٰ عَلَيْكَ يَوْمٌ أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟

قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ:

(لَقِيتُ مِنْ قَوْمِي مَا كَانَ أَشَدَّ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمُ «ثَقِيفٍ»، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَىٰ «عَبْدِ يَالِيلَ» فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَىٰ مَا أَرَدْتُ...

فَانْطَلَقْتُ عَلَىٰ وَجْهِي وَأَنَا مَغْمُومٌ، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ[1]، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا «جِبْرِيلُ» وَنَادَانِي فَقَالَ:

إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ...

فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ وَقَالَ:

يَا مُحَمَّدُ أَنَا مَلَكُ الجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبِّي إِلَيْكَ

---

(١) قرن الثعالب: موضع بين مَكَّة والطَّائف.

لِتَأْمُرَنِي بِمَا شِئْتَ، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمِ الأَخْشَبَيْنِ[1].

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

(بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ[2] مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا).

* * *

ظَلَّتْ «ثَقِيفٌ» مُسْتَمْسِكَةً بِكُفْرِهَا مُعْتَصِمَةً بِحُصُونِهَا زَمَناً طَوِيلاً...

فَقَدْ هَاجَرَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَىٰ «يَثْرِبَ»[3]، وَلَقِيَ فِيهَا مِنَ النُّصْرَةِ مَا لَمْ يَلْقَهُ فِي «الطَّائِفِ»...

وَدَحَرَ الشِّرْكَ فِي «بَدْرٍ»...

وَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الفَتْحَ المُبِينَ يَوْمَ مَكَّةَ...

---

(١) الأخشبين: جبلان يحيطان بمكة.
(٢) من أصلابهم: من ظهورهم، أي ذريتهم.
(٣) يثرب: المدينة المنورة.

وَأَسْلَمَ مِنَ قَبَائِلِ العَرَبِ خَلْقٌ كَثِيرٌ...

غَيْرَ أَنَّ «ثَقِيفاً» لَمْ تُسْلِمْ، وَإِنَّمَا ظَلَّتْ عَاكِفَةً عَلَىٰ «لَاتِهَا» تَعْبُدُهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وَيَوْمَ «حُنَيْنٍ» كَانَ لِثَقِيفٍ فِي جَيْشِ الشِّرْكِ قُوَّةٌ مَذْكُورَةٌ، وَقَدْ خَاضَتْ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مَعْرَكَةً ضَارِيَةً دَامِيَةً، فَاسْتَحَرَّ القَتْلُ فِي بَنِي «مَالِكٍ» مِنْ ثَقِيفٍ، حَتَّىٰ قُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلاً، وَكَانَ فِي جُمْلَةِ القَتْلَىٰ سَيِّدَانِ كَبِيرَانِ مِنْ سَادَةِ القَوْمِ، ثُمَّ ارْتَدَّتْ «ثَقِيفٌ» إِلَىٰ «الطَّائِفِ»، وَاعْتَصَمَتْ فِيهَا.

* * *

يَمَّمَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَجْهَهُ بَعْدَ «حُنَيْنٍ» نَحْوَ «الطَّائِفِ» بِجَيْشٍ مِنْ أَصْحَابِهِ...

فَحَاصَرَهَا حِصَاراً شَدِيداً، وَرَمَاهَا بِالمَنْجَنِيقِ...

فَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلَ مَنْ رَمَىٰ بِالمَنْجَنِيقِ فِي الإِسْلَامِ.

لَكِنَّ المَدِينَةَ الحَصِينَةَ صَمَدَتْ أَمَامَ هَجَمَاتِ جَيْشِ المُسْلِمِينَ.

وَفِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الحِصَارِ زَحَفَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ جِدَارٍ مِنْ جُدْرَانِ «الطَّائِفِ» تَحْتَ دَبَّابَةٍ لِيَخْرِقُوهُ...

فَأَرْسَلَتْ عَلَيْهِمْ «ثَقِيفٌ» سِكَكَ الحَدِيدِ مُحْمَاةً بِالنَّارِ، فَخَرَجُوا مِنْ تَحْتِهَا، فَرَمَاهُمُ الرُّمَاةُ بِالنِّبَالِ وَقَتَلُوا مِنْهُمْ رِجَالاً.

* * *

دَامَ حِصَارُ الرَّسُولِ ﷺ لِلطَّائِفِ نَحْواً مِنْ عِشْرِينَ يَوْماً ثُمَّ رَجَعَ عَنْهَا بَعْدَ أَنِ اسْتُشْهِدَ تَحْتَ أَسْوَارِهَا نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَصَابَهُ سَهْمٌ فَمَازَالَ مَرِيضاً مِنْهُ حَتَّىٰ فَارَقَ الحَيَاةَ.

وَفِيمَا كَانَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مُنْصَرِفاً عَنِ «الطَّائِفِ»؛ لَحِقَ بِهِ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِ «ثَقِيفٍ» هُوَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ فَأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ... وَسَأَلَ الرَّسُولَ

صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ قَوْمِهِ لِيَدْعُوَهُمْ إِلَىٰ اللَّهِ... فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ:

(إِنَّهُمْ قَاتِلُوكَ إِنْ رَجَعْتَ إِلَيْهِمْ)...

لِمَا عَرَفَ مِنْ نَخْوَتِهِمْ[1] وَشِدَّتِهِمْ.

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ.

* * *

وَثَقَ الزَّعِيمُ الثَّقَفِيُّ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ بِمَكَانِهِ مِنْ قَوْمِهِ؛ فَعَادَ إِلَيْهِمْ وَأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ أَمَامَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ:

«وَاللَّهِ يَا قَوْمُ لَقَدْ جِئْتُ كِسْرَىٰ فِي مُلْكِهِ، وَقَيْصَرَ فِي عَظَمَتِهِ...

فَمَا رَأَيْتُ مَلِكاً فِي قَوْمِهِ مِثْلَ مُحَمَّدٍ بَيْنَ أَصْحَابِهِ...

---

(١) النخوة: المروءة والحماسة.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ قَوْماً لَا يُسْلِمُونَهُ[1] بِشَيْءٍ أَبَداً ... فَانْظُرُوا مَا رَأْيُكُمْ ، فَإِنَّهُ عَرَضَ عَلَيْكُمْ رَشَداً ...

فَاقْبَلُوا مَا عَرَضَ عَلَيْكُمْ فَإِنِّي لَكُمْ نَاصِحٌ » .

لَكِنَّ « ثَقِيفاً » لَمْ تُوَقِّرْ زَعِيمَهَا وَلَمْ تَسْتَجِبْ لَهُ ، وَإِنَّمَا قَتَلَتْهُ ...

وَبَيْنَمَا كَانَ عُرْوَةُ يُصَعِّدُ أَنْفَاسَهُ الطَّاهِرَةَ أَوْصَىٰ أَلَّا يُدْفَنَ مَعَ قَوْمِهِ ، وَإِنَّمَا يُجْعَلُ قَبْرُهُ مَعَ الشُّهَدَاءِ الَّذِينَ اسْتُشْهِدُوا عِنْدَ أَسْوَارِ « الطَّائِفِ » مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً .

فَهُوَ مَدْفُونٌ خَارِجَ الطَّائِفِ .

* * *

ثُمَّ إِنَّ « ثَقِيفاً » أَخَذَتْ بَعْدَ ذَلِكَ تَثُوبُ إِلَىٰ رُشْدِهَا وَتُرَاجِعُ نَفْسَهَا ...

---

(١) لا يسلمونه : لا يتركونه لأعدائه ، بل يحمونه بكل مايقدرون ، ويفدونه بأرواحهم .

رَأَتِ الْمُسْلِمِينَ فِي صِدْقِ إِيمَانِهِمْ وَخُلُوصِ نِيَّاتِهِمْ وَدِقَّةِ نِظَامِهِمْ، فَأَكْبَرُوهُمْ وَعَزَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَمَادَوْا فِي حَرْبِهِمْ وَالنِّكَايَةِ لَهُمْ...

وَوَجَدُوا الإِسْلَامَ تَنْتَشِرُ كَلِمَتُهُ وَتَعْلُو رَايَتُهُ وَأَنَّهُ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِمُقَاوَمَتِهِ، فَشَرَحَ اللَّهُ صُدُورَهُمْ لِلإِسْلَامِ، وَوَجَّهَ قُلُوبَهُمْ لِلإِيمَانِ.

* * *

وَقْعَةُ عَمُّورِيَّةَ

فِي سَنَةِ مِائَتَيْنِ وَثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ لِلْهِجْرَةِ، وَفِي شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ ... اقْتَحَمَ الْمُعْتَصِمُ بْنُ الرَّشِيدِ حُصُونَ «عَمُّورِيَّةَ» فِي مِائَةٍ وَخَمْسِينَ أَلْفاً مِنْ جُنُودِهِ ...

وَفَتَحَ الْمَدِينَةَ الَّتِي عَزَّتْ[1] عَلَىٰ الْفَاتِحِينَ مُنْذُ عَهْدِ «الإِسْكَنْدَرِ الْمَقْدُونِيِّ» إِلَىٰ يَوْمِهِ ...

فَكَانَتْ وَقْعَةُ «عَمُّورِيَّةَ» غُرَّةً فِي جَبِينِ الدَّهْرِ، وَدُرَّةً فِي تَارِيخِ الإِسْلَامِ، وَتَاجاً زَانَ مَفْرِقَ الْمُعْتَصِمِ.

وَلِعَمُّورِيَّةَ الْمَنِيعَةِ الْحَصِينَةِ، وَيَوْمِهَا الأَغَرِّ الْمُحَجَّلِ، وَلِلْخَلِيفَةِ الَّذِي زَلْزَلَ أَرْكَانَهَا، وَقَوَّضَ

---

(١) عزت على الفاتحين: تعذر وصعب فتحها.

بُنْيَانَهَا قِصَّةٌ مُثِيرَةٌ سُدَاهَا الإِيمَانُ وَلُحْمَتُهَا النَّخْوَةُ[1].

فَتَعَالَوْا نَتَمَلَّ مِنْ هَذَا اليَوْمِ العَظِيمِ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ رَوَائِعِ أَيَّامِ اللَّهِ .

* * *

تَبْدَأُ هَذِهِ القِصَّةُ يَوْمَ أَرْسَلَ « بَابَكُ الخُرَّمِيُّ » أَحَدُ عُتَاةِ « الفُرْسِ » ، الخَارِجِينَ عَلَىٰ الإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ كِتَاباً إِلَىٰ « تِيُوفِيلَ » مَلِكِ « الرُّومِ » يَقُولُ فِيهِ :

لَقَدْ قَاوَمْتُ المُسْلِمِينَ عِشْرِينَ عَاماً ، وَقَضَيْتُ عَلَىٰ خَمْسِينَ وَمِائَتَي أَلْفٍ مِنْ خِيرَةِ جُنُودِهِمْ ، وَهَزَمْتُ سَبْعَةً مِنْ كِبَارِ قُوَّادِهِمْ ، وَاسْتَنْفَدْتُ الآلَافَ المُؤَلَّفَةَ مِنْ كَرِيمِ أَمْوَالِهِمْ ، وَحُلْتُ دُونَهُمْ وَدُونَ أَنْ يَطَأُوا شِعَابَ مَنْطِقَتِي الوَاقِعَةَ فِي أَعَالِي بِلَادِ « فَارِسٍ » ...

وَإِنَّ المُعْتَصِمَ العَبَّاسِيَّ أَرَادَ أَنْ يَثْأَرَ لِنَفْسِهِ ، وَلِأَخِيهِ المَأْمُونِ مِنْ قَبْلِهِ ؛ فَبَعَثَ لِحَرْبِي سَائِرَ عَسْكَرِهِ ،

(١) السدى : الخيوط الطولية للنسيج ، واللحمة : الخيوط العرضية .

وَأَنْفَذَ إِلَىٰ قِتَالِي خَاصَّةَ رِجَالِهِ حَتَّىٰ كَانَ فِي جُمْلَةِ مَنْ جَنَّدَهُمْ خَيَّاطُهُ الَّذِي يَخِيطُ ثِيَابَهُ، وَطَبَّاخُهُ الَّذِي يَطْهُو طَعَامَهُ...

فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَثْأَرَ لِدِينِكَ وَقَوْمِكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَخَلِيفَتِهِمْ فَاهْتَبِلْ(١) هَذِهِ الْفُرْصَةَ الَّتِي لَا تُعَوَّضُ، وَحَذَارِ أَنْ تُفْلِتَ مِنْكَ فَتَنْدَمَ؛ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ.

* * *

اسْتَيْقَنَ «تِيُوفِيلُ» مِنْ صِحَّةِ مَا أَخْبَرَهُ بِهِ «بَابَكُ الْخُرَّمِيُّ»، وَعَرَفَ أَنَّ خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ عَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يَقْضِيَ عَلَىٰ حَرَكَةِ «بَابَكَ» مَهْمَا كَانَ الثَّمَنُ غَالِياً.

فَلَمْ يَشَأْ «تِيُوفِيلُ» أَنْ يُفَوِّتَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَعَلَىٰ قَوْمِهِ، وَعَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يَثْأَرَ مِنْ خُلَفَاءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ قَسَرُوهُمْ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ عَلَىٰ دَفْعِ الْجِزْيَةِ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ...

فَأَعَدَّ «تِيُوفِيلُ» لِلْأَمْرِ عُدَّتَهُ، وَاتَّخَذَ لَهُ أُهْبَتَهُ،

---

(١) فاهتبل: انتهز الفرصة ولا تتركها تضيع منك.

وَتَوَجَّهَ إِلَىٰ مَدِينَةِ «زِبَطْرَةَ»، مَسْقِطِ رَأْسِ الْمُعْتَصِمِ بِمِائَةٍ وَسَبْعِينَ أَلْفاً مِنْ جُنُودِهِ، وَنَزَلَ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ الْمَنْكُوبَةِ نُزُولَ الْمَنُونِ...

فَهَدَّمَ حُصُونَهَا، وَاسْتَبَاحَ أَرْضَهَا، وَأَسَرَ الْمُدَافِعِينَ عَنْهَا، وَسَبَىٰ نِسَاءَهَا وَذَرَارِيَهَا.

وَلَمْ يَشْفِ ذَلِكَ كُلُّهُ غَيْظَ صَدْرِهِ حَتَّىٰ مَثَّلَ بِأَسْرَاهُ شَرَّ مُثْلَةٍ؛ فَسَمَلَ[1] عُيُونَهُمْ، وَجَدَعَ[2] أُنُوفَهُمْ، وَصَلَمَ[3] آذَانَهُمْ، وَطَافَ بِهِمْ فِي أَنْحَاءِ بِلَادِهِ.

* * *

وَبَيْنَمَا كَانَتْ حَرَكَةُ «الْخُرَّمِيِّينَ» قَدْ لَفَظَتْ أَنْفَاسَهَا الأَخِيرَةَ تَحْتَ وَطْأَةِ جُيُوشِ الْمُعْتَصِمِ الْجَرَّارَةِ، وَكَانَ مَعْبُودُهَا «بَابَكُ» قَدْ وَقَعَ أَسِيراً فِي أَيْدِي جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ الْبَوَاسِلِ...

وَكَانَ الْخَلِيفَةُ الْمُعْتَصِمُ يَخْرُجُ لِلِقَاءِ جَيْشِهِ

---

(١) سمل عيونهم: اقتلع عيونهم.
(٢) جدع أنوفهم: قطع أنوفهم.
(٣) صلم آذانهم: قطع آذانهم.

الظَّافِرِ، وَيَخْلَعُ عَلَىٰ قَائِدِهِ المُنْتَصِرِ وِشَاحَيْنِ مِنَ الجَوْهَرِ، وَيَصِلُهُ هُوَ وَأَفْرَادَ عَسْكَرِهِ بِعِشْرِينَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ...

وَبَيْنَمَا كَانَتِ الأَفْرَاحُ تَبْلُغُ ذِرْوَتَهَا فِي سَائِرِ بِلَادِ المُسْلِمِينَ، وَكَانَ الجُنْدُ يَطُوفُونَ عَلَيْهَا بِرَأْسِ «بَابَكَ الخُرَّمِيِّ» وَرَدَتْ عَلَىٰ المُعْتَصِمِ أَخْبَارُ نَكْبَةِ «زِبَطْرَةَ» ...

وَنُقِلَ إِلَيْهِ أَنَّ امْرَأَةً مُسْلِمَةً مِنَ العَفِيفَاتِ المُحْصَنَاتِ قَدْ وَقَعَتْ فِي يَدِ عِلْجٍ(١) مِنْ عُلُوجِ الرُّومِ، فَلَمَّا هَمَّ بِسَبْيِهَا نَادَتْ:

وَامُعْتَصِمَاهُ ... وَامُعْتَصِمَاهُ ...

فَهَزَّ النِّدَاءُ نَخْوَتَهُ، وَأَثَارَ رُجُولَتَهُ ...

وَهَبَّ عَنْ سَرِيرِهِ وَهُوَ يَقُولُ: لَبَّيْكِ ... لَبَّيْكِ ...

* * *

(١) العلج: الرجل القوي الضخم.

لَقَدْ نَهَضَ المُعْتَصِمُ لِتَوِّهِ، وَلَبِسَ لأْمَتَهُ[1]، وَتَقَلَّدَ سِلَاحَهُ، وَحَمَلَ حَقِيبَةً وَوَضَعَ فِيهَا زَادَهُ، وَرَكِبَ حِصَانَهُ، وَصَاحَ بِالنَّفِيرِ[2] وَهُوَ عَلَىٰ أَبْوَابِ قَصْرِهِ...

وَأَقْسَمَ أَلَّا يَعُودَ إِلَيْهِ إِلَّا شَهِيداً مَحْمُولاً عَلَىٰ الأَعْنَاقِ، أَوْ ظَافِراً مُنْتَقِماً لِلْمَدِينَةِ الغَالِيَةِ المَنْكُوبَةِ، وَالمَرْأَةِ المُسْلِمَةِ المَغْصُوبَةِ.

ثُمَّ غَادَرَ قَصْرَ الخِلَافَةِ لِسَاعَتِهِ، وَأَقَامَ عَشَرَ لَيَالٍ فِي «دَارِ العَامَّةِ» فِي «بَغْدَادَ» لِيُعِدَّ العُدَّةَ، وَيَرْسُمَ الخُطَّةَ، وَيُعَبِّئَ الجَيْشَ...

وَلَمَّا تَجَهَّزَ جِهَازاً لَمْ يَسْبِقْ لِخَلِيفَةٍ مِنْ خُلَفَاءِ المُسْلِمِينَ أَنْ تَجَهَّزَ مِثْلَهُ، أَحْضَرَ قَاضِيَ «بَغْدَادَ» عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ إِسْحَاقَ، وَأَحْضَرَ مَعَهُ ثَلَاثَمِائَةِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ العَدَالَةِ؛ فَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ وَصِيَّتِهِ، وَقِسْمَةِ تَرِكَتِهِ..

فَجَعَلَ ثُلُثَ مَالِهِ لِلَّهِ...

---

(١) لأمته: درعه وملابسه الحربية. (٢) صاح بالنفير: نادىٰ للحرب.

وَالبَاقِيَ لِأَزْوَاجِهِ وَأَوْلَادِهِ وَمَوَالِيهِ...

وَلَمْ يَأْخُذْ مِنْ ثَرْوَتِهِ كُلِّهَا سِوَىٰ ثَمَنِ كَفَنِهِ.

* * *

نَهَدَ(١) المُعْتَصِمُ إِلَىٰ لِقَاءِ عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّهِ بِجَيْشٍ لَجِبٍ فِيهِ - كَمَا يَقُولُ المُؤَرِّخُونَ - ثَمَانُونَ أَلْفَ جَوَادٍ أَبْلَقَ، وَثَمَانُونَ أَلْفَ جَوَادٍ أَدْهَمَ... وَمَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ المَنْجَنِيقَاتِ وَالعُدَدِ وَآلَةِ الحَرْبِ، وَذَلِكَ بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ مَا يَحْتَاجُهُ الجُنْدُ مِنْ حِيَاضِ الأَدَمِ(٢)، وَالرَّوَايَا وَالقِرَبِ، وَجَعَلَ وِجْهَتَهُ «عَمُّورِيَّةَ»...

ذَلِكَ لِأَنَّهَا كَانَتْ رُوحَ النَّصْرَانِيَّةِ، وَالطَّرِيقَ المُؤَدِّيَةَ إِلَىٰ «القُسْطَنْطِينِيَّةِ»... وَالمَدِينَةَ الَّتِي رَامَهَا(٣) الفَاتِحُونَ مُنْذُ عَهْدِ «الإِسْكَنْدَرِ» إِلَىٰ يَوْمِ المُعْتَصِمِ، فَعَزَّتْ عَلَيْهِمْ، وَرَدَّتْهُمْ مَقْهُورِينَ.

وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهَا كَانَتْ ذَاتَ حُصُونٍ مُشَيَّدَةٍ،

---

(١) نهد: أسرع.

(٢) الأدم: الجلد المدبوغ.

(٣) رامها: أرادها.

وَبُرُوجٍ مُمَرَّدَةٍ[1]، وَهِيَ إِلَىٰ ذَلِكَ مَدِينَةُ الأُسْرَةِ الحَاكِمَةِ، وَمَسْقِطُ رَأْسِ «تِيُوفِيلَ» إِمْبَرَاطُورِ الرُّومِ...

* * *

أَرْسَلَ المُعْتَصِمُ فِرْقَةً كَبِيرَةً مِنْ جَيْشِهِ اللَّجِبِ[2] إِلَىٰ «أَنْقَرَةَ» لِتُنَازِلَ «تِيُوفِيلَ» وَتَشْغَلَهُ عَنْهُ، وَاتَّجَهَ بِبَاقِي عَسْكَرِهِ نَحْوَ «عَمُّورِيَّةَ»...

وَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنَ المَدِينَةِ العَظِيمَةِ قَسَّمَ عَسْكَرَهُ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ جُيُوشٍ، وَجَعَلَ لِكُلٍّ مِنْهَا قَائِدَهُ الَّذِي يَقُودُهُ، وَخَصَّ كُلَّ جَيْشٍ بِيَوْمٍ يُقَاتِلُ فِيهِ عَلَىٰ التَّنَاوُبِ.

وَلَمَّا وَصَلَ الجَيْشُ الأَوَّلُ دَارَ حَوْلَ «عَمُّورِيَّةَ» دَوْرَتَيْنِ ثُمَّ أَخَذَ مَوْقِعَهُ عِنْدَ أَسْوَارِهَا...

ثُمَّ تَلَاهُ الجَيْشُ الثَّانِي فَدَارَ حَوْلَهَا دَوْرَةً وَاحْتَلَّ مَرْكَزَهُ المُحَدَّدَ لَهُ... ثُمَّ تَلَاهُمَا الجَيْشُ الثَّالِثُ وَاسْتَقَرَّ فِي المَكَانِ المُقَدَّرِ لَهُ.

* * *

---

(١) البروج الممردة: الملساء المرتفعة. (٢) اللجب: الجرار ذو الجلبة.

وَفِي الأُسْبُوعِ الأَوَّلِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ المُبَارَكِ سَنَةَ مِائَتَيْنِ وَثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ لِلْهِجْرَةِ كَانَتِ المَنْجَنِيقَاتُ قَدْ نُصِبَتْ حَوَالَيْ أَسْوَارِ «عَمُّورِيَّةَ» مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.

وَكَانَتْ جُيُوشُ المُسْلِمِينَ الثَّلَاثَةُ تُحِيطُ بِالمَدِينَةِ الحَصِينَةِ إِحَاطَةَ الأَمْوَاجِ بِجَزِيرَةٍ مِنْ جُزُرِ البَحْرِ، وَتُطَوِّقُهَا تَطْوِيقَ القُيُودِ لِلْمَعَاصِمِ...

وَلَقَدْ قَاتَلَ الجَيْشُ الأَوَّلُ فِي نَوْبَتِهِ[1] فَأَبْلَىٰ فِي قِتَالِهِ أَعْظَمَ البَلَاءِ، ثُمَّ تَلَاهُ الجَيْشُ الثَّانِي فِي نَوْبَتِهِ؛ فَزَادَ عَلَىٰ الجَيْشِ الأَوَّلِ وَأَرْبَىٰ عَلَيْهِ... ثُمَّ تَلَاهُمَا الجَيْشُ الثَّالِثُ، وَكَانَ بِقِيَادَةِ المُعْتَصِمِ نَفْسِهِ...

فَأَظْهَرَ مِنْ ضُرُوبِ الشَّجَاعَةِ، وَصُنُوفِ البَرَاعَةِ، مَا كَادَ يُنْسِي النَّاسَ فَضْلَ الجَيْشَيْنِ السَّابِقَيْنِ...

* * *

وَلَقَدِ اسْتَمَرَّ القِتَالُ عَلَىٰ هَذَا المِنْوَالِ[2] بِضْعَةَ

---

(١) نوبته: وقته المحدد ليؤدي فيه عمله. (٢) المنوال: الأسلوب.

أَيَّامٍ ، غَيْرَ أَنَّ أَسْوَارَ المَدِينَةِ المُمَرَّدَةِ صَمَدَتْ أَمَامَ ضَرَبَاتِ مَنْجَنِيقَاتِ المُسْلِمِينَ ، وَلَمْ تَتَأَثَّرْ بِهَا تَأَثُّراً يُذْكَرُ ...

غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَفُتَّ[1] فِي عَضُدِ المُعْتَصِمِ وَجَيْشِهِ ، وَلَمْ يُكَدِّرْهُمْ[2] لِثِقَتِهِمْ بِالنَّصْرِ ، وَإِنَّمَا كَدَّرَهُمْ أَمْرٌ آخَرُ رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ الصُّولِيُّ فَقَالَ :

حَدَّثَ يَعْقُوبُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ سُلَيْمَانَ قَالَ :

غَزَوْتُ مَعَ المُعْتَصِمِ يَوْمَ « عَمُّورِيَّةَ » ...

فَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الرُّومِ يَقُومُ كُلَّ يَوْمٍ عَلَىٰ سُورٍ مِنْ أَسْوَارِ المَدِينَةِ ، وَيَشْتُمُ النَّبِيَّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِالْعَرَبِيَّةِ أَقْذَعَ[3] الشَّتْمِ ، وَيَذْكُرُ اسْمَهُ وَنَسَبَهُ ؛ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَىٰ المُسْلِمِينَ وَأَثَارَ مَشَاعِرَهُمْ ، وَجَعَلُوا يَقْذِفُونَهُ بِالنُّشَّابِ[4] ؛ فَلَا يُصِيبُونَهُ ...

وَكُنْتُ أَرْمِي رَمْياً جَيِّداً ، فَبَيْنَمَا كَانَ الرَّجُلُ يَفْعَلُ

---

(١) لم يفت : يضعف.
(٢) يكدرهم : ينغصهم.
(٣) أقذع : أفحش.
(٤) النشاب : السهم.

فَعَلَتَهُ الشَّنْعَاءَ تِلْكَ اعْتَمَدْتُهُ بِنُشَّابَةٍ، فَأَصَبْتُ نَحْرَهُ[1]؛ فَهَوَىٰ مِنْ فَوْقِ السُّورِ؛ فَكَبَّرَ الْمُسْلِمُونَ وَهَلَّلُوا، وَسُرَّ الْمُعْتَصِمُ وَقَالَ: عَلَيَّ بِالرَّجُلِ الَّذِي رَمَاهُ.

فَمَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ... فَرَحَّبَ بِي أَجْمَلَ التَّرْحِيبِ وَأَثْنَىٰ عَلَيَّ أَجْزَلَ الثَّنَاءِ، ثُمَّ قَالَ: مِمَّنْ أَنْتَ؟.

فَانْتَسَبْتُ لَهُ... [وَكُنْتُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ].

فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ ثَوَابَ هَذَا السَّهْمِ لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي...

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ، وَقَالَ:

بِعْنِي ثَوَابَكَ مِنْ هَذَا السَّهْمِ.

فَقُلْتُ: لَيْسَ الثَّوَابُ مِمَّا يُبَاعُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

فَقَالَ: إِنِّي أُرَغِّبُكَ...

وَعَرَضَ عَلَيَّ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ.

---

(١) النحر: الرقبة.

فَقُلْتُ: مَا أَبِيعُ ثَوَابِي...

فَمَازَالَ يَزِيدُهَا حَتَّىٰ بَلَغَ بِهَا خَمْسَمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ.

فَقُلْتُ: لَا أَبِيعُ ثَوَابِي بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا...

وَلَكِنْ قَدْ وَهَبْتُ لَكَ نِصْفَ ثَوَابِ هَذَا السَّهْمِ... وَاللَّهُ يَشْهَدُ عَلَيَّ بِذَلِكَ.

فَسُرَّ الْمُعْتَصِمُ أَعْظَمَ السُّرُورِ، وَقَالَ:

جَزَاكَ اللَّهُ خَيْراً...

وَانْصَرَفَ عَنِّي إِلَىٰ قِتَالِ عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّهِ.

* * *

اسْتَمَرَّتْ مَنْجَنِيقَاتُ الْمُسْلِمِينَ تَضْرِبُ الْمَدِينَةَ عَشَرَةَ أَيَّامٍ مُتَوَالِيَاتٍ عَلَّهَا تُحْدِثُ فِيهَا ثُغْرَةً فَلَمْ تُفْلِحْ...

وَهُنَا أَسْعَفَ الْقَدَرُ الْمُعْتَصِمَ بِرَجُلٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ كَانَ الرُّومُ قَدْ أَسَرُوهُ مُنْذُ بِضْعِ سَنَوَاتٍ، فَتَنَصَّرَ، وَأَقَامَ فِي «عَمُّورِيَّةَ»...

فَمَا إِنْ رَأَىٰ الجَيْشَ الإِسْلَامِيَّ يَرْفَعُ الأَذَانَ فِي أَرْجَاءِ السَّمَاءِ وَسَمِعَ التَّهْلِيلَ[1] وَالتَّكْبِيرَ حَتَّىٰ حَنَّتْ نَفْسُهُ إِلَىٰ دِينِ اللَّهِ، وَاسْتَيْقَظَ فِي صَدْرِهِ الإِيمَانُ بِاللَّهِ...

فَتَسَلَّلَ مِنَ المَدِينَةِ الحَصِينَةِ وَلَجَأَ إِلَىٰ جُيُوشِ المُسْلِمِينَ، وَأَعْلَنَ الشَّهَادَتَيْنِ، وَكَشَفَ لِلْمُعْتَصِمِ عَنْ سِرٍّ كَبِيرٍ...

* * *

لَقَدْ أَخْبَرَ المُعْتَصِمَ بِأَنَّ مَوْضِعاً مِنْ سُورِ المَدِينَةِ كَانَ قَدْ تَهَدَّمَ بِسَبَبِ سَيْلٍ عَرِمٍ[2] اجْتَاحَهُ، فَكَتَبَ «تِيُوفِيلُ» إِلَىٰ عَامِلِهِ عَلَىٰ «عَمُّورِيَّةَ» لِيُعِيدَ بِنَاءَهُ، فَتَوَانَىٰ[3] العَامِلُ فِي ذَلِكَ...

فَمَا إِنْ عَلِمَ بِقُدُومِكُمْ حَتَّىٰ سَارَعَ إِلَىٰ بِنَاءِ ظَاهِرِ السُّورِ بِالحِجَارَةِ، وَمَوَّهَ بَاطِنَهُ تَمْوِيهاً...

---

(١) هلل: قال لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّه.
(٢) سيل عرم: سيل متدفق جارف.
(٣) فتوانىٰ: تمهل وأبطأ.

ثُمَّ دَلَّ الْمُعْتَصِمَ عَلَىٰ مَوْضِعِهِ.

فَوَجَّهَ الْخَلِيفَةُ الْمَنْجَنِيقَاتِ إِلَىٰ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ.

وَطَفِقَ يَقْذِفُهُ بِهَا قَذْفاً مُتَتَابِعاً مُتَوَالِياً حَتَّىٰ تَصَدَّعَ السُّورُ، وَانْفَتَحَتْ مِنْهُ فُرْجَةٌ...

عِنْدَ ذَلِكَ أَقْبَلَ جُنْدُ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ الثُّغْرَةِ الْمَفْتُوحَةِ إِقْبَالَ الْعِطَاشِ عَلَىٰ الْمَوْرِدِ الْعَذْبِ فِي الْيَوْمِ الْقَائِظِ...

وَتَزَاحَمُوا بِالْمَنَاكِبِ عَلَىٰ لِقَاءِ عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّهِمْ فِي دَاخِلِ الْمَدِينَةِ.

وَدَارَتْ بَيْنَ الْقِلَّةِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي اسْتَطَاعَتِ النُّفُوذَ إِلَىٰ «عَمُّورِيَّةَ» وَبَيْنَ الْكَثْرَةِ الْكَثِيرَةِ مِنَ الرُّومِ مَعَارِكُ ضَارِيَةٌ، كَانَ لَا يُسْمَعُ فِيهَا غَيْرُ صَلِيلِ السُّيُوفِ، وَهَمْهَمَةِ الْمُتَقَاتِلِينَ، وَرَنَّاتِ الرِّمَاحِ، وَأَنَّاتِ الْمَطْعُونِينَ.

* * *

لَمْ تَغِبْ شَمْسُ يَوْمِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ

سَنَةَ مِائَتَيْنِ وَثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ لِلْهِجْرَةِ إِلَّا وَكَانَتِ المَدِينَةُ العَرِيقَةُ العَتِيدَةُ قَدْ فُتِحَتْ أَمَامَ جُيُوشِ المُسْلِمِينَ المُنْتَصِرَةِ ...

وَشُوهِدَ المُعْتَصِمُ بْنُ الرَّشِيدِ يَدْخُلُ مَدِينَةَ « عَمُّورِيَّةَ » عَلَىٰ صَهْوَةِ جَوَادِهِ الأَصْهَبِ[1] ...

وَقَدْ نَكَّسَ رَأْسَهُ خُضُوعاً لِلّٰهِ وَشُكْراً عَلَىٰ نَعْمَائِهِ ...

* * *

لَقَدْ غَنِمَ المُسْلِمُونَ فِي يَوْمِ « عَمُّورِيَّةَ » هٰذَا ... غَنَائِمَ لَا يُحْصِيهَا عَدٌّ وَلَا يُقَدِّرُ لَهَا ثَمَنٌ ، وَأَسَرُوا فِيهِ سَبْعِينَ أَلْفاً مِنْ أَهْلِهَا ، وَأَخْرَجُوا الغَنَائِمَ وَالأَسْرَىٰ إِلَىٰ ظَاهِرِ المَدِينَةِ .

ثُمَّ أَمَرَ المُعْتَصِمُ « بِعَمُّورِيَّةَ » ؛ فَدُكَّتْ[2] أَسْوَارُهَا ، وَهُدِّمَتْ بُنْيَانُهَا ، وَأُزِيلَتْ مَعَالِمُهَا ،

---

(١) الجواد الأصهب : الفرس الذي يختلط لونه بحمرة أو بشقرة .
(٢) دكت : زلزلت .

وَأُضْرِمَتْ فِيهَا النِّيرَانُ أَيَّاماً طَوِيلَةً حَتَّىٰ تَرَكَتْهَا قَاعاً صَفْصَفاً[١] كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ.

* * *

عَادَ الخَلِيفَةُ الظَّافِرُ إِلَىٰ «بَغْدَادَ» قَاعِدَةِ مُلْكِهِ، وَقَدْ سَبَقَتْهُ البَشَائِرُ بِالفَتْحِ الكَبِيرِ...

فَخَرَجَ النَّاسُ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهِمْ[٢]، يَسْتَقْبِلُونَهُ بِالتَّهْلِيلِ، وَيُحَيُّونَهُ بِالتَّكْبِيرِ، وَيَنْثُرُونَ عَلَىٰ مَوْكِبِهِ الرَّيْحَانَ وَالأَوْرَادَ...

وَتَلَقَّاهُ الشُّعَرَاءُ بِالمَدَائِحِ، وَأَنْشَدَ أَبُو تَمَّامٍ[٣] بَيْنَ يَدَيْهِ بِائِيَّتَهُ البَاقِيَةَ عَلَىٰ وَجْهِ الدَّهْرِ، وَخَاطَبَهُ فِيهَا قَائِلاً:

خَلِيفَةَ اللّٰهِ جَازَىٰ اللّٰهُ سَعْيَكَ عَنْ
جُرْثُومَةِ الدِّينِ، وَالإِسْلَامِ، وَالحَسَبِ[٤]

---

(١) قاعاً صفصفاً: خالية من كل شيء، والصفصف المستوي من الأرض.
(٢) عن بكرة أبيهم: أي جميعهم.
(٣) أبو تمام: هو حبيب بن أوس الطائي، ٧٨٨ ـ ٨٤٥، شاعر عباسي، نشأ في دمشق وتوفي في الموصل.
(٤) الجرثومة: الأصل.

بَصُرْتَ بِالرَّاحَةِ الكُبْرَىٰ فَلَمْ تَرَهَا

تُنَالُ إِلَّا عَلَىٰ جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ

إِنْ كَانَ بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ رَحِمٍ(١)

مَوْصُولَةٍ أَوْ ذِمَامٍ غَيْرِ مُنْقَضِبِ(٢)

فَبَيْنَ أَيَّامِكَ اللَّاتِي نُصِرتَ بِهَا

وَبَيْنَ أَيَّامِ بَدْرٍ أَقْرَبُ النَّسَبِ

وَلَا غَرْوَ(٣)، فَقَدْ كَانَتْ بَدْرٌ فِي السابِعَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ ...

وَكَانَتْ «عَمُّورِيَّةُ» فِي السَّابِعَ عَشَرَ مِنْهُ أَيْضاً.

فَحَبَّذَا رَمَضَانُ، وَحبَّذَا أَيَّامُهُ الغُرُّ المَيَامِينُ(٤).

* * *

(١) صروف الدهر: تغيراته وتقلباته.
(٢) غير منقضب: غير منكسر ولا منقطع.
(٣) لَا غَرْوَ: لا عجب.
(٤) الغُرُّ: جمع أغر وهو كريم الأفعال، والميامين: جمع الميمون أي ذو اليُمن والبركة.

سُقُوطُ المَسْجِدِ الأَقْصَىٰ بِأَيْدِي الصَّلِيبِيِّينَ

فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ أَرْبَعِمِائَةٍ وَاثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ لِلْهِجْرَةِ رُوِّعَ[1] العَالَمُ الإِسْلَامِيُّ مِنْ أَقْصَاهُ إِلَىٰ أَقْصَاهُ بِاحْتِلَالِ الصَّلِيبِيِّينَ لِأُولَىٰ القِبْلَتَيْنِ، وَثَالِثِ الحَرَمَيْنِ، وَمَسْرَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَكَانَ يَوْماً حَزِيناً مِنْ أَيَّامِ المُسْلِمِينَ لَا تَذْهَبُ الأَيَّامُ بِمَرَارَتِهِ...

وَلَا تَمْحُو الأَحْدَاثُ الجِسَامُ ذِكْرَاهُ.

* * *

أَرَأَيْتَ إِلَىٰ قَصْرٍ شَامِخِ البُنْيَانِ، ثَابِتِ الأَرْكَانِ،

(١) روِّع: أصيب بما يفزعه، ويهز فؤاده.

مَنِيعِ الحِمَىٰ[1]، عَامِرٍ بِالأُنْسِ، طَافِحٍ[2] بِالحَيَاةِ، ثُمَّ دَارَتْ عَلَيْهِ الدَّوَائِرُ، وَنَزَلَتْ بِهِ الأَحْدَاثُ؛ فَأَقْفَرَ[3] مِنْ سَاكِنِيهِ، وَخَلَا مِنْ حُمَاتِهِ...

فَأَصْبَحَ مُوحِشاً بَعْدَ إِينَاسٍ؛ قَاتِماً بَعْدَ بِشْرٍ...

تُعْوِلُ[4] الرِّيحُ فِي جَنَبَاتِهِ، وَيُعَشِّشُ البُومُ فِي شُرُفَاتِهِ، وَتَفُحُّ الأَفَاعِي فِي أَبْهَائِهِ وَحُجُرَاتِهِ؟!

هَكَذَا كَانَ حَالُ العَالَمِ الإِسْلَامِيِّ فِي أَوَاخِرِ القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْرِيِّ.

فَقَدْ أَوْصَدَ خَلِيفَةُ «بَغْدَادَ» عَلَىٰ نَفْسِهِ الأَبْوَابَ قَانِعاً بِمَا يُلْقِي إِلَيْهِ المُتَسَلِّطُونَ مِنْ عَرَضِ الحَيَاةِ...

وَانْشَغَلَ خَلِيفَةُ «القَاهِرَةِ» بِالخُرَافَاتِ يُثَبِّتُ بِهَا مُلْكَهُ، وَيَصُونُ بِهَا عَرْشَهُ...

---

(١) منيع الحمىٰ: الذي يتعذر الوصول إليه.
(٢) طافح بالحياة: ملآن بالحياة والبهجة.
(٣) فأقفر من ساكنيه: خلا وأصبح كالصحراء القفر.
(٤) تعول: ترفع صوتها الذي هو كالعويل.

وَغَرِقَ الْمُسْلِمُونَ فِي الخِلَافَاتِ ...

وَنَسِيَ النَّاسُ اللَّهَ ؛ فَنَسِيَهُمْ ...

وَتَخَلَّوْا عَنْهُ ؛ فَوَكَلَهُمْ إِلَىٰ عَدُوِّهِ وَعَدُوِّهِمْ .

* * *

كَانَتْ حَالَةُ العَالَمِ الإِسْلَامِيِّ هَذِهِ أَكْبَرَ مُحَرِّضٍ[1] « لِلبَابَا » وَإِمْبَرَاطُورِ « القُسْطَنْطِينِيَّةِ » عَلَىٰ غَزْوِ بِلَادِ المُسْلِمِينَ ...

وَإِثَارَةِ الحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَنْقَطِعْ لَحْظَةً وَاحِدَةً مُنْذُ وُجِدَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ ظَهْرِ الأَرْضِ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ كَالنَّارِ تَكْمُنُ فِي الرَّمَادِ ؛ فَإِذَا هَبَّتْ عَلَيْهَا رِيحٌ مُوَاتِيَةٌ ؛ شَبَّتْ وَاشْتَعَلَتْ .

* * *

انْدَفَعَتْ جُمُوعُ الصَّلِيبِيِّينَ نَحْوَ المَشْرِقِ تَغْلِي فِي صُدُورِهَا الأَحْقَادُ ، وَيَشْحَنُ قُلُوبَهَا الكَيْدُ ، فَاجْتَاحَتْ حُصُونَ « أَنْطَاكِيَةَ » المُمَنَّعَةَ ...

---

(١) محرض : مشجع له عَلَىٰ غزو المسلمين .

ثُمَّ انقَضَّتْ مِنْ بَعْدِهَا عَلَىٰ «مَعَرَّةِ النُّعْمَانِ»[1] بَلْدَةِ أَبِي العَلَاءِ.

لَقَدْ قَاوَمَ سُكَّانُ «المَعَرَّةِ» البُسَلَاءُ جُمُوعَ الصَّلِيبِيِّينَ مُقَاوَمَةً أَكْبَرَ مِنْ حَجْمِهِمْ، لَكِنَّ الغُزَاةَ مَا لَبِثُوا أَنِ احْتَلُّوا المَدِينَةَ عِنْدَ العِشَاءِ، فَأَسْكَتُوا أَصْوَاتَ المُؤَذِّنِينَ مِنْ فَوْقِ المَنَائِرِ، وَأَعْمَلُوا فِي رِقَابِ النَّاسِ السَّيْفَ...

فَقَتَلُوا كُلَّ رَجُلٍ وَكُلَّ امْرَأَةٍ وَكُلَّ طِفْلٍ...

وَجَعَلُوا يَطَئُونَ بِنِعَالِهِمْ جُثَثَ القَتْلَىٰ بَعْدَ أَنْ مَلأَتِ الدُّرُوبَ، وَسَدَّتِ المَسَالِكَ.

* * *

تَابَعَ الجَيْشُ الصَّلِيبِيُّ سَيْرَهُ يَحصُدُ المُدُنَ وَالقُرَىٰ حَصْداً... ثُمَّ يَمَّمَ الصَّلِيبِيُّونَ وُجُوهَهُمْ شَطْرَ بَيْتِ المَقْدِسِ وَكَانَ فِي يَدِ «الفَاطِمِيِّينَ»...

---

(١) هي بلدة في شمالي سوريا وما زالت تحمل نفس الإسم حتّىٰ يومنا هذا.

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ رُوِّعَ العَالَمُ الإِسْلَامِيُّ مِنْ أَقْصَاهُ إِلَىٰ أَقْصَاهُ بِاحْتِلَالِ الصَّلِيبِيِّينَ لِأُولَىٰ القِبْلَتَيْنِ، وَثَالِثِ الحَرَمَيْنِ، وَمَسْرَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. دُونَ مُقَاوَمَةٍ تُذْكَرُ.

* * *

لَقَدْ أَبَاحَ الصَّلِيبِيُّونَ مَدِينَةَ السَّلَامِ[1] سَبْعَةَ أَيَّامٍ كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا كَمِائَةِ سَنَةٍ مِمَّا نَعُدُّ...

فَأَعْمَلُوا السُّيُوفَ فِي الرِّقَابِ، وَأَجْرَوُا الدِّمَاءَ فِي الشَّوَارِعِ، وَرَفَعُوا مِنْ جُثَثِ القَتْلَىٰ تِلَالاً، وَصَنَعُوا مِنْ هَامَاتِهِمْ قِبَاباً.

لَقَدْ دَخَلُوا الدُّورَ، فَسَبَوْا مَنْ فِيهَا، وَاحْتَلُّوا القُصُورَ، فَبَقَرُوا[2] بُطُونَ سُكَّانِهَا بَحْثاً عَنِ الدَّنَانِيرِ المَخْبُوءَةِ فِي الأَمْعَاءِ...

ثُمَّ دَاهَمُوا المَسْجِدَ الأَقْصَىٰ فَقَتَلُوا فِي رِحَابِهِ الآمِنَةِ سَبْعِينَ أَلْفاً مِمَّنْ لَاذُوا بِهِ...

---

(١) مدينة السلام: مدينة القدس. (٢) بقروا البطون: شقوها.

فِيهِمُ العَالِمُ العَابِدُ، وَالتَّقِيُّ الزَّاهِدُ، وَالمَرْأَةُ وَالرَّضِيعُ.

وَدَخَلُوا بِخَيْلِهِمْ إِلَىٰ الحَرَمِ القُدْسِيِّ...

فَدَاسَتْ سَنَابِكُهَا[1] عَلَىٰ الأَشْلَاءِ[2]...

وَتَخَضَّبَتْ[3] قَوَائِمُهَا بِالدِّمَاءِ.

ثُمَّ نَهَبُوا مَا فِي الأَقْصَىٰ مِنَ النَّفَائِسِ، وَكَانَ فِي جُمْلَةِ مَا نَهَبُوهُ مِئَاتُ القَنَادِيلِ المَصْنُوعَةِ مِنْ صَافِي الفِضَّةِ، وَخَالِصِ الذَّهَبِ.

ثُمَّ تَرَكُوا حَامِيَةً فِي المَدِينَةِ الحَزِينَةِ، وَانْطَلَقُوا يَفْتَحُونَ المُدُنَ، وَيَدُكُّونَ الحُصُونَ.

* * *

الْتَفَتَ المُسْلِمُونَ فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا إِلَىٰ خَلِيفَةِ مِصْرَ الفَاطِمِيِّ صَاحِبِ بَيْتِ المَقْدِسِ عَلَّهُ

---

(١) سنابكها: حوافرها.

(٢) الأشلاء: الأعضاء والأجزاء.

(٣) تخضبت قوائمها: صبغت قوائمها.

يَسْتَنْقِذُهُ مِنْ أَيْدِي مُحْتَلِّيهِ، وَيُطَهِّرُهُ مِنْ دَنَسِ غَاصِبِيهِ.

فَوَجَدُوهُ خَاضِعاً لِوَزِيرِهِ، وَوَزِيرُهُ مَحَلُّ رِيبَةٍ[1].

وَأَرْسَلُوا وَفْداً مِنْهُمْ فِيهِ القَاضِي أَبُو سَعِيدٍ الهَرَوِيُّ إِلَىٰ خَلِيفَةِ بَغْدَادَ، فَنَزَلَ الوَفْدُ فِي الدِّيوَانِ الخَلِيفِيِّ، وَرَوَىٰ مِنَ الأَخْبَارِ مَا أَبْكَىٰ العُيُونَ، وَقَرَّحَ الجُفُونَ[2]، وَأَوْجَعَ القُلُوبَ...

وَقَامُوا بِالجَامِعِ يَوْمَ الجُمُعَةِ فَاسْتَغَاثُوا وَبَكَوْا وَأَبْكَوْا، وَذَكَرُوا لِلنَّاسِ مَا دَهَمَ المُسْلِمِينَ الصَّائِمِينَ فِي رَمَضَانَ مِنْ قَتْلِ الرِّجَالِ، وَسَبْيِ النِّسَاءِ، وَنَهْبِ الأَمْوَالِ...

لَكِنَّ خَلِيفَةَ بَغْدَادَ كَانَ مَغْلُوباً عَلَىٰ أَمْرِهِ مَحْبُوساً فِي قَصْرِهِ.

* * *

(١) الريبة: الشك والتهمة.

(٢) قرح الجفون: تقرحت منه الجفون، والجفن غطاء العين.

عِنْدَ ذَلِكَ صَرَفَ المُسْلِمُونَ أَنْظَارَهُمْ عَنِ الخَلِيفَتَيْنِ القَابِعَيْنِ عَلَىٰ فُرُشِ الدِّيبَاجِ[١] فِي القَاهِرَةِ وَبَغْدَادَ...

وَجَعَلُوا يَرْمُونَ بِأَبْصَارِهِمْ إِلَىٰ آفَاقِ بِلَادِ المُسْلِمِينَ، لَعَلَّهَا تُطْلِعُ لَهُمْ نَجماً يَهْتَدُونَ بِهِ فِي ظُلُمَاتِ لَيَالِيهِمُ الحَالِكِ... فَكَانَ أَنْ أَطْلَعَ اللَّهُ لَهُمْ صَلَاحَ الدِّينِ بْنِ نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبَ.

وَلِصَلَاحِ الدِّينِ سِيرَةٌ مُشْرِقَةٌ كَالسَّنَا[٢]...

مُضِيئَةٌ كَالْبَدْرِ تُنِيرُ الطَّرِيقَ لِمَنْ أَرَادَ سُلُوكَ الطَّرِيقِ.

* * *

أَدْرَكَ صَلَاحُ الدِّينِ أَنَّ الخَيْرَ كَامِنٌ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ كُمُونَ الحَيَاةِ فِي حَبَّاتِ البُذُورِ، فَهِيَ تَبْتَغِي المَاءَ النَّمِيرَ[٣]، وَالتُّرْبَةَ الصَّالِحَةَ، وَالضَّوءَ

---

(١) الديباج: الثوب الذي سداه ولحمته من الحرير.
(٢) السَّنا: النور. (٣) الماء النمير: الصافي العذب.

المُشْرِقَ لِتَسْتَيْقِظَ مِنْ سُبَاتِهَا، وَتَمْلأَ الأَرْضَ بِالنَّمَاءِ وَالعَطَاءِ.

عَرَفَ صَلَاحُ الدِّينِ المِفْتَاحَ الَّذِي يَفْتَحُ بِهِ قُلُوبَ أُمَّتِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَأَدَارَهُ فِي قُلُوبِهَا بِمَهَارَةٍ فَفَتَحَهَا وَدَخَلَ إِلَيْهَا مِنْ أَوْسَعِ أَبْوَابِهَا...

ذَلِكُمُ المِفْتَاحُ إِنَّمَا هُوَ مِفْتَاحُ الدِّينِ.

وَآمَنَ بِمَبْدَإِ المَلِكِ القُدْوَةِ، فَعَظَّمَ شَرِيعَةَ اللَّهِ، وَامْتَثَلَ لِأَوَامِرِهِ وَاجْتَنَبَ نَوَاهِيَهُ...

فَلَمْ تَفُتْهُ جَمَاعَةٌ فِي صَلَاتِهِ إِلَّا نَادِراً...

وَلَمْ يَفُتْهُ صِيَامٌ إِلَّا قَضَاهُ...

أَمَّا الزَّكَاةُ؛ فَلَمْ يَجْتَمِعْ لَدَيْهِ طُولَ حَيَاتِهِ نِصَابُهَا.

* * *

لَمْ يُعَلِّقْ صَلَاحُ الدِّينِ قَلْبَهُ بِالنَّشَبِ وَالتِّلَادِ، وَإِنَّمَا نَاطَهُ[١] بِالنِّضَالِ وَالجِهَادِ...

---

(١) ناطه: أسنده وعلقه.

فَقَدْ أَمْضَىٰ رُبْعَ قَرْنٍ مِنْ حَيَاتِهِ لَمْ يُظِلَّهُ سَقْفٌ إِلَّا قَلِيلاً، وَإِنَّمَا كَانَ مَسْكَنُهُ الدَّائِمُ إِمَّا صَهْوَةَ جَوَادٍ، وَإِمَّا خَيْمَةً تُضْرَبُ لَهُ فِي العَرَاءِ...

وَلَقَدِ اسْتَطَاعَ أَنْ يُؤَثِّرَ فِي قَوْمِهِ أَعْظَمَ تَأْثِيرٍ فَحَارَبَ مَعَهُ الفُقَهَاءُ وَالعُلَمَاءُ، وَالأُدَبَاءُ وَالشُّعَرَاءُ وَالمُعَلِّمُونَ، ثُمَّ الصِّبْيَةُ وَالنِّسَاءُ.

لَقَدْ سَاقَ اللَّهُ النَّاسَ لِصَلَاحِ الدِّينِ زُمَراً[1] يُؤَيِّدُونَهُ وَيَفْدُونَهُ، وَكَانَ إِذَا دَعَا إِلَىٰ الجِهَادِ أَقْبَلَ عَلَيْهِ المُتَطَوِّعُونَ بِمَحْضِ إِرَادَتِهِمْ، وَمُطْلَقِ حُرِّيَّتِهِمْ، وَقَدْ حَمَلَ كُلٌّ مِنْهُمْ كِفَايَتَهُ مِنَ الزَّادِ...

فَكَانَتْ كَثْرَةُ جُنُودِهِ مِنَ المُتَطَوِّعِينَ الَّذِينَ جَاءُوا طَلَباً لِمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الأَجْرِ وَمِنَ الشَّهَادَةِ...

وَكَانَ ذَٰلِكَ سَبَباً كَبِيراً مِنْ أَسْبَابِ انْتِصَارَاتِهِ.

* * *

---

(١) زمراً: جماعات.

أَدْرَكَ صَلَاحُ الدِّينِ قِيمَةَ الثَّرْوَةِ البَشَرِيَّةِ فِي إِشَادَةِ المَمَالِكِ وَكَسْبِ المَعَارِكِ، فَبَحَثَ فِي كُلِّ بَلَدٍ فِي مِصْرَ، فِي الشَّامِ، فِي الحِجَازِ فِي اليَمَنِ، فِي بَغْدَادَ، فِي كُلِّ رُقْعَةٍ مِنْ بِلَادِ المُسْلِمِينَ عَنْ ذَوِي الكِفَايَةِ(١) فِي السِّيَاسَةِ، فِي العُلُومِ، فِي الحُرُوبِ، فِي الفُنُونِ، فِي الآدَابِ، وَجَمَعَهُمْ مِنْ كُلِّ قُطْرٍ. فَكَانَ لَهُ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ مُعِينٌ، وَمِنْ كُلِّ مِصْرٍ عَضُدٌ وَصَدِيقٌ، وَتِلْكَ إِحْدَىٰ فَرَائِدِ(٢) صَلَاحِ الدِّينِ.

لَقَدِ اخْتَارَ صَلَاحُ الدِّينِ مِنَ العُلَمَاءِ أَعْلَمَهُمْ وَأَصْدَقَهُمْ...

وَمِنَ الدُّعَاةِ أَفْقَهَهُمْ بِالدِّينِ...

وَمِنَ المُهَنْدِسِينَ أَحْكَمَهُمْ فَنًّا، وَأَوْفَرَهُمْ نَشَاطاً...

وَمِنَ الرُّسُلِ أَخْبَرَهُمْ بِالأُمُورِ، وَأَكْتَمَهُمْ لِلأَسْرَارِ.

---

(١) ذوي الكفاية: أصحاب المعرفة الكافية.

(٢) فرائد صلاح الدين: خصاله الفريدة.

ثُمَّ إِنَّهُ تَحَلَّىٰ بِصِفَاتِ البُطُولَةِ، فَلَمْ تُفَارِقْهُ فِي حَالَيْ صِحَّتِهِ وَمَرَضِهِ...

وَيَوْمَيْ نَصْرِهِ وَهَزِيمَتِهِ...

وَأَمْرَيْ عُسْرِهِ وَيُسْرِهِ.

كَانَ إِذَا حَمِيَ الوَطِيسُ[1]، وَاشْتَدَّتِ الْكَرِيهَةُ[2]، وَطَوَّقَهُ المَوْتُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ يَطُوفُ بِصُفُوفِ جُنْدِهِ، وَيَمُدُّ يَدَهُ لِمُصَافَحَةِ المَوْتِ فَيَرْتَدُّ عَنْهُ المَوْتُ.

بِهَذِهِ الصِّفَاتِ قَادَ صَلَاحُ الدِّينِ جُنْدَ المُسْلِمِينَ مِنْ نَصْرٍ إِلَىٰ نَصْرٍ إِلَىٰ نَصْرٍ...

وَبِهَذِهِ الْخِلَالِ[3]، اسْتَطَاعَ أَنْ يَمْحُوَ العَارَ الَّذِي لَحِقَ بِالمُسْلِمِينَ مُنْذُ احْتَلَّ الصَّلِيبِيُّونَ بَيْتَ المَقْدِسِ.

* * *

فَفِي مُنْتَصِفِ رَجَبٍ سَنَةَ خَمْسِمِائَةٍ وَثَلَاثٍ

---

(١) حمي الوطيس: اشتدت الحرب. (٣) الخلال: الخصال والصفات.
(٢) واشتدت الكريهة: ازدادت.

وَثَمَانِينَ لِلْهِجْرَةِ، أَحَاطَتْ جُيُوشُ الْمُسْلِمِينَ بِقِيَادَةِ صَلَاحِ الدِّينِ بِالْقُدْسِ إِحَاطَةَ الْقَيْدِ بِالْمِعْصَمِ، وَنَصَبُوا مَنْجَنِيقَاتِهِمْ حَوْلَ أَسْوَارِهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَسَلُّوا سُيُوفَ اللَّهِ لِتَرْتَوِيَ مِنْ دِمَاءِ أَعْدَاءِ اللَّهِ...

فَارْتَاعَ[1] الْفِرِنْجَةُ مِنْ هَوْلِ مَا رَأَوْا...

وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ...

فَمَا هِيَ إِلَّا جَوْلَةٌ صَادِقَةٌ؛ حَتَّىٰ بَرَزَ الْبِطْرِيَرْكُ[2] يَطْلُبُ لِنَفْسِهِ وَلِقَوْمِهِ الْأَمَانَ، فَلَبَّىٰ صَلَاحُ الدِّينِ طَلَبَهُ.

قَطَعَ الْفِرِنْجَةُ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَدْفَعُوا عَنْ كُلِّ رَجُلٍ عَشَرَةَ دَنَانِيرَ، وَعَنْ كُلِّ امْرَأَةٍ خَمْسَةً، وَعَنْ كُلِّ طِفْلٍ دِينَارَيْنِ، ذَلِكَ لِمَنْ أَرَادَ افْتِدَاءَ نَفْسِهِ، وَمَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ الْفِدْيَةِ وَقَعَ أَسِيراً.

* * *

(١) ارتاع الفرنجة: خافوا خوفاً شديداً.
(٢) البطريق: رجل الدين عند النصارىٰ.

وَفِي صَبَاحِ يَوْمِ الجُمُعَةِ السَّابِعِ وَالعِشْرِينَ مِنْ رَجَبٍ سَنَةَ خَمْسِمِائَةٍ وَثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ لِلْهِجْرَةِ...

دَخَلَ المُسْلِمُونَ إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ مُهَلِّلِينَ مُكَبِّرِينَ، تَضِجُّ أَلسِنَتُهُمْ بِالدُّعَاءِ، وَتَعْلُو أَصْوَاتُهُمْ لِلَّهِ بِالشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ...

وَأُنْزِلَ الصَّلِيبُ الأَكْبَرُ الَّذِي كَانَ مَنْصُوباً عَلَىٰ قُبَّةِ الصَّخْرَةِ، وَمُحِيَتِ التَّصَاوِيرُ الَّتِي كَانَتْ مَنْقُوشَةً عَلَىٰ جُدْرَانِ المَسْجِدِ، وَأُزِيلَتِ النَّوَاقِيسُ[1] مِنْ فَوْقِ مَنَارَاتِهِ...

وَانْطَلَقَتْ مِنْ فَوْقِ المَنَائِرِ أَصْوَاتُ الأَذَانِ، وَامْتَزَجَتْ أَصْوَاتُ المُؤَذِّنِينَ بِتِلَاوَةِ القُرْآنِ...

وَاجْتُلِبَ مِنْ «حَلَبَ»[2] المِنْبَرُ الَّذِي صَنَعَهُ المَلِكُ العَادِلُ نُورُ الدِّينِ زِنْكِي وَنَذَرَهُ لِلْقُدْسِ حِينَ تُفْتَحُ.

---

(١) النواقيس: مفردها ناقوس، وهو الجرس.
(٢) حلب: مدينة في شمال سوريا.

وَأُقِيمَتْ أَوَّلُ جُمُعَةٍ فِي القُدْسِ بَعْدَ أَنْ عُطِّلَتْ فِيهَا الجُمَعُ نَيِّفاً وَتِسْعِينَ عَاماً...

وَخَطَبَ الجُمُعَةَ القَاضِي مُحِي الدِّينِ بْنُ الزَّكِيِّ، وَدُعِيَتْ خُطْبَتُهُ بِخُطْبَةِ الفَتْحِ، وَقَدْ جَمَعَ فِيهَا الخَطِيبُ الأَدِيبُ سَائِرَ تَحْمِيدَاتِ القُرْآنِ.

وَلَمَّا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ جَلَسَ صَلَاحُ الدِّينِ يَتَقَبَّلُ تَهْنِئَاتِ المُسْلِمِينَ، بِالفَتْحِ المُبِينِ.

هَنِيئًا لِلْمُسْلِمِينَ بِصَلَاحِ الدِّينِ، وَهَنِيئًا لِصَلَاحِ الدِّينِ بِالفَتْحِ المُبِينِ...

وَضَرَاعَةً لِلَّهِ أَنْ يُكْرِمَ المُسْلِمِينَ بِيَوْمٍ آخَرَ كَيَوْمِ الفَتْحِ؛ يَمْحُونَ فِيهِ العَارَ، وَيُزِيلُونَ الشَّنَارَ[1]...

وَيَسْتَرِدُّونَ القُدْسَ المَسْلُوبَ، وَيَسْتَنْقِذُونَ الحَرَمَ المَغْصُوبَ...

---

(١) الشَّنَار: العار، وأقبح العيب.

وَبِذَلِكَ تَقَرُّ عَيْنُ الفَاتِحِ الأَوَّلِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ...

وَتَبَرُّ رُوحُ الفَاتِحِ الثَّانِي صَلَاحِ الدِّينِ.

* * *

هَدْمُ مَدِينَةِ عَسْقَلَانَ

فِي غُرَّةِ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ خَمْسِمِائَةٍ وَسَبْعٍ وَثَمَانِينَ، كَانَ بَطَلٌ مِنْ أَبْطَالِ المُسْلِمِينَ يُمْسِكُ مِعْوَلاً[1] كَبِيراً بِكِلْتَا يَدَيْهِ القَوِيَّتَيْنِ، وَيَهْوِي بِهِ عَلَىٰ حُصُونِ مَدِينَةٍ مِنْ مُدُنِ أُمَّتِهِ...

وَدُرَّةٍ ثَمِينَةٍ مِنْ دُرَرِ مَمْلَكَتِهِ.

وَكَانَ مَعَهُ أَبْنَاؤُهُ وَإِخْوَتُهُ، وَقُوَّادُهُ، وَأَجْنَادُهُ وَجُمُوعٌ غَفِيرَةٌ مِنْ أَبْنَاءِ شَعْبِهِ، وَفِي يَدِ كُلٍّ مِنْهُمْ مِعْوَلٌ يَنْهَالُ بِهِ عَلَىٰ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ المَدِينَةِ.

أَمَّا صَاحِبُ المِعْوَلِ الكَبِيرِ فَهُوَ البَطَلُ العَظِيمُ صَلَاحُ الدِّينِ...

---

(١) المعول: أداة للهدم.

وَأَمَّا المَدِينَةُ المَنْكُوبَةُ فَهِيَ «عَسْقَلَانُ».

* * *

لَمْ تَكُنْ «عَسْقَلَانُ» آنَئِذٍ كَفراً مِنَ الكُفُورِ النَّائِيَةِ نَزَحَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ؛ وَتَرَكُوهُ لِعَوَامِلِ الطَّبِيعَةِ فَهَدَّمَتْهُ وَخَرَّبَتْهُ...

وَلَمْ تَكُنْ قَرْيَةً مِنَ القُرَىٰ الصَّغِيرَةِ المُتَدَاعِيَةِ[1] الَّتِي يَهُونُ عَلَىٰ النُّفُوسِ أَنْ تَخْرُجَ عَنْهَا...

وَعَلَىٰ الأَيْدِي أَنْ تَمْتَدَّ إِلَيْهَا بِالهَدْمِ...

وَإِنَّمَا كَانَتْ مَدِينَةً مِنْ كُبْرَيَاتِ مُدُنِ «فِلَسطِينَ»، تَقَعُ بَيْنَ «غَزَّةَ» وَ«بَيْتِ جِبرِينَ»، وَتَرْبِضُ عَلَىٰ سَاحِلِ البَحْرِ الأَبْيَضِ المُتَوَسِّطِ... شَامِخَةَ الذُّرَىٰ مَنِيعَةَ الحُصُونِ...

وَتَقِفُ كَالمَارِدِ[2] فِي وَسَطِ الطَّرِيقِ بَيْنَ مِصْرَ وَالشَّامِ...

---

(١) المتداعية: المتصدعة.

(٢) المارد: القوي الجبار الذي لا يقهر.

وَتُطِلُّ كَالدَّيْدَبَانِ[1] الحَذِرِ عَلَىٰ مَشَارِفِ البَحْرِ.

وَكَانَتْ «عَسْقَلَانُ» تَجْمَعُ إِلَىٰ الجَلَالِ الجَمَالَ، فَهِيَ تَمْتَلِكُ بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ حُصُونِهَا المُمَرَّدَةِ وَبُرُوجِهَا المُشَيَّدَةِ، آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ مِنَ البَهَاءِ وَالحُسْنِ...

حَتَّىٰ دَعَاهَا المُؤَرِّخُونَ «بِعَرُوسِ الشَّامِ»...

وَهُوَ لَقَبٌ ضَنُّوا بِهِ، فَلَمْ يَخْلَعُوهُ إِلَّا عَلَيْهَا وَعَلَىٰ «دِمَشْقَ».

وَلِهَدْمِ «عَسْقَلَانَ» بِيَدِ صَلَاحِ الدِّينِ قِصَّةٌ طَوِيلَةٌ مُثِيرَةٌ تَبْدَأُ مُنْذُ عَهْدِ الخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَتَسْتَمِرُّ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا...

* * *

فَتَحَ المُسْلِمُونَ مَدِينَةَ «عَسْقَلَانَ» فِي عَهْدِ الفَارُوقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وَذَلِكَ حِينَ أَرْسَلَ إِلَىٰ «مُعَاوِيَةَ

---

(١) الديدبان: الحارس.

ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، يَأْمُرُهُ بِفَتْحِ « عَسْقَلَانَ » وَمَا جَاوَرَهَا مِنْ مُدُنِ السَّاحِلِ ؛ فَصَدَعَ[1] مُعَاوِيَةُ بِالأَمْرِ ، وَفَتَحَ المَدِينَةَ الحَصِينَةَ ، وَأَقَامَ عَلَيْهَا حَفَظَةً يَحْرُسُونَهَا مِنْ هَجَمَاتِ الرُّومِ .

ثُمَّ طَفِقَتْ تَؤُمُّ[2] « عَسْقَلَانَ » جَمَاعَاتٌ إِثْرَ جَمَاعَاتٍ مِنَ الصَّحَابَةِ[3] الكِرَامِ ، وَالتَّابِعِينَ[4] العِظَامِ ...

حَتَّىٰ غَدَتْ حَاضِرَةً مِنْ حَوَاضِرِ العِلْمِ وَالدِّينِ ، وَمَوْئِلاً[5] لِلْحُفَّاظِ وَالمُحَدِّثِينَ ...

وَظَلَّتْ « عَسْقَلَانُ » الحَصِينَةُ فِي أَيْدِي المُسْلِمِينَ طَوَالَ خَمْسَةِ قُرُونٍ وَرُبْعِ القَرْنِ تُمْسِكُ بِزِمَامِ الطَّرِيقِ بَيْنَ مِصْرَ وَالشَّامِ ...

---

(١) صدع بالأمر : مضىٰ فيه وأنفذه .

(٢) طفقت تؤم : أخذت تدخل وتزور .

(٣) الصَّحَابة : هم من رأوا النَّبي ﷺ مؤمنين به وماتوا علَىٰ الإسلام .

(٤) التَّابعون : هم الرعيل الأول بعد صَحابة النَّبي ﷺ ، وقد قسمهم علماء الحديث إلَىٰ طبقات ، أولهم من لحِقَ العشرةَ المبشرين بالجنة وآخرهم من لَقِيَ صغار الصَّحَابة أو من تأخرت وفاتهم ... انظر كتاب « صور من حياة التَّابعين » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٥) موئلاً : ملاذاً ومرجعاً .

وَتَسُدُّ مَنَافِذَ البَحْرِ فِي وَجْهِ كُلِّ عُدْوَانٍ.

* * *

وَفِي سَنَةِ خَمْسِمِائَةٍ وَثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ... جَرَفَهَا الغَزْوُ الصَّلِيبِيُّ فِي جُمْلَةِ مَا جَرَفَهُ مِنْ بِلَادِ المُسْلِمِينَ...

فَكَانَ سُقُوطُهَا وَسُقُوطُ أُخْتِهَا «عَكَّا» فِي يَدِ الفِرِنْجَةِ شَجىً فِي حُلُوقِ المُسْلِمِينَ وَقَذًى فِي عُيُونِ المُجَاهِدِينَ...

ذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ مَلَكَ «عَكَّا وَعَسْقَلَانَ» مَلَكَ بَيْتَ المَقْدِسِ، وَقَطَعَ الطَّرِيقَ بَيْنَ مِصْرَ وَالشَّامِ.

* * *

ظَلَّتْ «عَسْقَلَانُ وَعَكَّا» فِي يَدِ الصَّلِيبِيِّينَ زُهَاءَ خَمْسَةٍ وَثَلَاثِينَ عَاماً حَتَّىٰ كَتَبَ اللَّهُ لَهُمَا أَنْ تُفْتَحَا عَلَىٰ يَدَيْ بَطَلِ الإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ صَلَاحِ الدِّينِ.

وَيَوْمَ فَتَحَ صَلَاحُ الدِّينِ مَدِينَةَ «عَسْقَلَانَ» ضَحِكَتِ الآمَالُ فِي صَدْرِهِ، وَتَمَلَّكَهُ مِنَ السُّرُورِ مَا لَمْ يَتَمَلَّكْهُ بِفَتْحٍ قَبْلَهُ...

وَلَا غَزْوَ فَعَسْقَلَانُ سَتُدْنِيهِ[1] مِنَ الأُمْنِيَةِ العُظْمَىٰ... وهِيَ أُمْنِيَةُ فَتْحِ بَيْتِ المَقْدِسِ...

وَقَدْ أَرْسَلَ صَلَاحُ الدِّينِ رِسَالَةً إِلَىٰ أَهْلِهِ فِي «مِصْرَ» إِثْرَ فَتْحِ «عَسْقَلَانَ» قَالَ فِيهَا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ:

وَنَازَلْنَا «عَسْقَلَانَ»، وَهِيَ المَعْقِلُ المَنِيعُ، وَالحِصْنُ الحَصِينُ، وَالجَبَلُ الرَّفِيعُ، وَفِيهَا مِنَ القُوَّةِ مَا تَتَقَاصَرُ الآمَالُ عَنْ نَيْلِ مِثْلِهِ...

فَافْتَتَحْنَاهَا بَعْدَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْماً مِنْ نُزُولِنَا عَلَيْهَا، فَنُصِبَتْ أَعْلَامُ التَّوْحِيدِ عَلَىٰ أَسْوَارِهَا، وَعَمَرَتْ بِالمُسْلِمِينَ دِيَارُهَا، وَكَبَّرَ المُؤَذِّنُونَ فِي سَائِرِ أَقْطَارِهَا، وَالعَزْمُ مَعْقُودٌ عَلَىٰ التَّوَجُّهِ إِلَىٰ القُدْسِ، فَإِذَا فَتَحَ اللَّهُ وَنَصَرَ؛ مِلْنَا[2] إِلَىٰ مَدِينَةِ «صُورَ»... وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ.

* * *

(١) ستدنيه: ستقربه.

(٢) ملنا إِلَىٰ: توجهنا إِلَىٰ.

أَدْرَكَ صَلَاحُ الدِّينِ بَعْدَ فَتْحِ «عَسْقَلَانَ» أَنَّ بَاباً مِنْ أَبْوَابِ الخَيْرِ قَدْ فُتِحَ لَهُ، وَأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَلِجَهُ[1]، وَكَانَ يُرَدِّدُ قَوْلَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

(مَنْ فُتِحَ لَهُ بَابٌ إِلَىٰ الخَيْرِ فَلْيَنْتَهِزْهُ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَتَىٰ يُغْلَقُ دُونَهُ)...

عِنْدَ ذَلِكَ كَمَّ[2] عَسَاكِرَهُ المُتَفَرِّقَةَ، وَضَمَّ قُوَاهُ المُشَتَّتَةَ... وَجَمَعَ صَفْوَةَ أَجْنَادِهِ وَخِيرَةَ قُوَّادِهِ، وَنَهَدَ[3] إِلَىٰ الفَتْحِ الكَبِيرِ.

* * *

وَفِي يَوْمِ الأَحَدِ الخَامِسَ عَشَرَ مِنْ رَجَبٍ سَنَةَ خَمْسِمِائَةٍ وَثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ لِلْهِجْرَةِ نَزَلَ صَلَاحُ الدِّينِ عَلَىٰ الصَّلِيبِيِّينَ فِي القُدْسِ نُزُولَ المَنُونِ...

وَفِي السَّابِعِ وَالعِشْرِينَ مِنْهُ... حَرَّرَ البَطَلُ المَدِينَةَ مِنْ أَيْدِي الصَّلِيبِيِّينَ، وَأَنْزَلَ الصَّلِيبَ الأَكْبَرَ مِنْ فَوْقِ

(١) يلجه: يدخله.
(٢) كمّ عساكره: جمعها وألف بينها.
(٣) نهد: أسرع.

الصَّخْرَةِ المُشَرَّفَةِ... وَاحْتَفَلَ المُسْلِمُونَ بِذِكْرَىٰ الإِسْرَاءِ وَالمِعْرَاجِ فِي مَكَانِ الإِسْرَاءِ وَالمِعْرَاجِ، بَعْدَ أَنْ ظَلَّ فِي قَبْضَةِ الصَّلِيبِيِّينَ نَيِّفاً[1] وَتِسْعِينَ عَاماً.

* * *

أَثَارَ سُقُوطُ القُدْسِ ثَائِرَةَ «أُورُبَّا» فَقَامَتْ وَلَمْ تَقْعُدْ، وَهَزَّ الحَادِثُ الكَبِيرُ كُرْسِيَّ «البَابَا»؛ فَهَبَّ يُنذِرُ بِالوَيْلِ، وَالثُّبُورِ[2]، وَيَدْعُو إِلَىٰ الجِهَادِ المُقَدَّسِ...

فَانْدَفَعَ الرِّجَالُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ، وَتَدَفَّقَتِ الأَمْوَالُ مِنْ كُلِّ جَيْبٍ، وَانْهَالَ السِّلَاحُ مِنْ كُلِّ دَرْبٍ...

وَكَانَ الطَّرِيقُ إِلَىٰ القُدْسِ... إِنَّمَا هُوَ «عَكَّا وَعَسْقَلَانُ».

هَاجَمَ الصَّلِيبِيُّونَ «عَكَّا» هُجُوماً لَمْ يَشْهَدْ لَهُ التَّارِيخُ مَثِيلاً...

---

(١) النيف: عدد من ثلاثة إِلَىٰ تسعة أي زاد عن التسعين عاماً عدداً أخرىٰ لم يصل إِلَىٰ المائة.

(٢) الويل والثبور: الهلاك والدمار.

وَدَافَعَ عَنْهَا الْمُسْلِمُونَ دِفَاعاً لَمْ يَشْهَدْ لَهُ التَّارِيخُ مَثِيلاً.

* * *

وَقَفَ صَلَاحُ الدِّينِ وَحْدَهُ فِي وَجْهِ «أُورُبَّا» كُلِّهَا، فَنَالَهُ وَنَالَ عَسْكَرَهُ مِنَ الْجَهْدِ مَا لَا قِبَلَ لَهُمْ بِمِثْلِهِ...

وَأَدْرَكَ أَنَّهُ مُنْهَزِمٌ لَا مَحَالَةَ إِذَا لَمْ تَمْتَدَّ إِلَيْهِ يَدُ الْعَوْنِ مِنْ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَبَعَثَ رِسَالَةً مِنْ مَيَادِينِ الْجِهَادِ إِلَى الْخَلِيفَةِ الْوَادِعِ الْمُطْمَئِنِّ فِي «بَغْدَادَ» قَالَ فِيهَا:

لَقَدْ أَثَّرَتْ فِينَا وَفِي جُنْدِنَا الْمُدَّةُ الطَّوِيلَةُ وَالنَّفَقَةُ الثَّقِيلَةُ، وَالْكُفَّارُ يَمُدُّهُمُ الْبَحْرُ بِمَرَاكِبَ أَكْثَرَ مِنْ أَمْوَاجِهِ، وَجُنُودٍ أَوْفَرَ مِنْ أُجَاجِهِ[1]...

فَإِذَا قَتَلَ الْمُسْلِمُونَ وَاحِداً مِنْهُمْ فِي الْبَرِّ؛ بَعَثَ الْبَحْرُ بَدَلاً مِنْهُ أَلْفاً...

---

(١) الأجاج: ملوحة الماء.

وإِذَا أُبِيدَ مِنْهُمْ صَفٌّ أَتَوْا بِعِشْرِينَ صَفًّا...

ثُمَّ قَالَ:

لَقَدْ خَرَجَ إِلَيْنَا عَاهِلُ الأَلْمَانِ، وَمُلُوكُ الصُّلْبَانِ، وَجُمُوعُ مَا وَرَاءَ البَحْرِ، وَحُشُودُ أَجْنَاسِ الكُفْرِ...

وَقَدْ حَرَّمَ «بَابَاهُمْ» عَلَيْهِمْ كُلَّ مُبَاحٍ، وَاسْتَخْرَجَ مِنْ صَنَادِيقِهِمْ كُلَّ مَذْخُورٍ(١)، وَأَلْبَسَهُمْ أَثْوَابَ الحِدَادِ(٢)، وَأَلْزَمَهُمْ خُطَّةَ الجِهَادِ، حَتَّىٰ يَسْتَخْلِصُوا مِنْ أَيْدِينَا مَقْبَرَةَ المَسِيحِ، وَيَسْتَنْقِذُوا مِنَّا كَنِيسَةَ القِيَامَةِ...

ثُمَّ أَتْبَعَ يَقُولُ:

وَإِنَّ هَذَا يَقْضِي عَلَيْنَا أَنْ نَسْتَفْرِغَ عَزَائِمَ الرِّجَالِ وَنَسْتَنْفِدَ خَزَائِنَ الأَمْوَالِ...

وَيُوجِبُ عَلَىٰ خَلِيفَةِ المُسْلِمِينَ أَنْ يَحْفَظَ عَلَىٰ رَعِيَّتِهِ قِبْلَتَهُمْ، وَأَنْ يُزِيحَ عَنْهُمْ عِلَّتَهُمْ...

---

(١) كل مذخور: كل مدَّخر.

(٢) أثواب الحداد: ثياب الحزن.

ثُمَّ قَالَ :

رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ...

وَهَا هُوَ ذَا أَخِي قَدْ لَحِقَ بِجِوَارِكَ ، وَهَا هُمْ أُولَاءِ أَوْلَادِي وَقَدْ أَبْرَزْتُ صَفَحَاتِ وُجُوهِهِمْ لِعَدُوِّكَ ، وَهَانَ عَلَيَّ حُبًّا بِكَ أَنْ أَرَىٰ الْمَكْرُوهَ فِيهِمْ ...

ثُمَّ اسْتَصْرَخَ[1] الخَلِيفَةَ قَائِلاً :

يَا عُصْبَةَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اخْلُفْهُ فِي أُمَّتِهِ ، وَوَفِّهِ الحَقَّ فِيهِمْ ، وَلَا تُؤَخِّرْ عَنَّا النَّجْدَةَ ...

فَإِنَّ مَنْفَعَةَ الغَوْثِ إِنَّمَا تَكُونُ قَبْلَ العَطَبِ ...

ثُمَّ خَتَمَ رِسَالَتَهُ الحَزِينَةَ قَائِلاً :

وَبَعْدُ ... فَإِنَّ فِينَا وَإِنْ عَضَّ[2] الزَّمَانُ بَقِيَّةً ، وَإِنَّنَا لَنُعَاهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ أَنْ نَبْقَىٰ قَائِمِينَ حَتَّىٰ نُنْصَرَ أَوْ نُعْذَرَ[3] ،

---

(١) استصرخ : صرخ بطلب العون .
(٢) وإن عضّ الزمان : انصرف الحظ عنا .
(٣) نعذر : يكون لنا العذر إذا لم ننصر .

وَعَلَىٰ أَلَّا يَصِلَ أَحَدٌ إِلَىٰ ذُرِيَّةِ أَحْمَدَ مَا بَقِيَ فِي ذُرِيَّةِ بَنِي « أَيُّوبَ » وَاحِدٌ يُذْكَرُ .

* * *

لَمْ تَجِدْ رِسَالَةُ صَلَاحِ الدِّينِ عِنْدَ الخَلِيفَةِ وَرِجَالِهِ أُذُناً صَاغِيَةً ، وَلَمْ تَلْقَ مِنْهُمْ أَفْئِدَةً وَاعِيَةً ...

وَظَلَّ المُسْلِمُونَ يُنَافِحُونَ[1] عَنْ « عَكَّا » ، حَتَّىٰ سَقَطَتْ فِي أَيْدِي الصَّلِيبِيِّينَ بَعْدَ أَنْ فُلَّتِ[2] السُّيُوفُ ، وَكَلَّتِ[3] السَّوَاعِدُ وَخَارَتِ[4] العَزَائِمُ ...

وَكَانَ يَوماً عَلَىٰ المُسْلِمِينَ عَظِيماً .

* * *

لَمْ يُضِعِ الصَّلِيبِيُّونَ الفُرْصَةَ ، فَوَجَّهُوا جُيُوشَهُمْ وِجْهَةَ « عَسْقَلَانَ » ... وَمَا بَعْدَ عَسْقَلَانَ القُدْسُ .

وَوَجَدَ صَلَاحُ الدِّينِ نَفْسَهُ عَاجِزاً عَنْ صَدِّ

---

(١) ينافحون : يدافعون .

(٢) فلت السيوف : تكسر حدها .

(٣) كلت السواعد : تعبت .

(٤) خارت العزائم : أصابها الخور ، أي شدة التعب .

الصَّليبيِّينَ عَنْ «عَسْقَلَانَ»، وَأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّخِذَ القَرَارَ الحَازِمَ فِي المَوْقِفِ الحَاسِمِ.

وَاتِّخَاذُ القَرَارَاتِ الحَازِمَةِ فِي المَوَاقِفِ الحَاسِمَةِ أَمْرٌ لَا يَقْوَىٰ عَلَيْهِ إِلَّا عُظَمَاءُ الرِّجَالِ...

فَلَقَدِ اتَّخَذَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ القَرَارَ الحَازِمَ فِي المَوْقِفِ الحَاسِمِ يَوْمَ بَايَعَ أَبَا بَكْرٍ فِي السَّقِيفَةِ، فَحَسَمَ الشَّرَّ وَأَقَرَّ الأَمْرَ...

وَاتَّخَذَ أَبُو بَكْرٍ القَرَارَ الحَاسِمَ فِي المَوْقِفِ الحَازِمِ حِينَ عَقَدَ العَزْمَ عَلَىٰ مُحَارَبَةِ مَانِعِي الزَّكَاةِ، فَصَانَ الإِسْلَامَ وَحَفِظَ الدِّينَ...

وَاتَّخَذَ صَلَاحُ الدِّينِ القَرَارَ الحَازِمَ فِي المَوْقِفِ الحَاسِمِ...

فَقَرَّرَ هَدْمَ «عَسْقَلَانَ» وَإِزَالَتَهَا مِنَ الوُجُودِ حَتَّىٰ لَا يَتَّخِذَهَا العَدُوُّ حِصْناً، وَسَكَناً، وَمُنْطَلَقاً.

* * *

لَقَدْ كَانَ صَعْباً عَلَىٰ صَلَاحِ الدِّينِ أَنْ يَتَّخِذَ قَرَارَهُ ، لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي مُسْتَوَىٰ القَائِدِ المُفَوَّضِ المُطَاعِ ...

وَكَانَ صَعْباً عَلَىٰ المُسْلِمِينَ أَنْ يُنَفِّذُوهُ ، لَوْ لَمْ يَكُونُوا فِي مُسْتَوَىٰ القَائِدِ .

لَقَدْ قَالَ صَلَاحُ الدِّينِ يَوْمَ أَصْدَرَ قَرَارَهُ :

وَاللَّهِ لَأَنْ أَفْقِدَ أَوْلَادِي جَمِيعاً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَهْدِمَ حَجَراً وَاحِداً مِنْ عَسْقَلَانَ ...

وَلَكِنَّ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةً لِلْإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ .

وَفِي أَوَاخِرِ شَعْبَانَ ، أَرْسَلَ صَلَاحُ الدِّينِ جَيْشَهُ لِيَعُوقَ زَحْفَ الصَّلِيبِيِّينَ نَحْوَ « عَسْقَلَانَ » ...

وَفِي غُرَّةِ رَمَضَانَ رَفَعَ مَعَاوِلَهُ لِيَهْدِمَ المَدِينَةَ الكَبِيرَةَ العَرِيقَةَ ؛ وَمَعَهُ جُمُوعٌ غَفِيرَةٌ مِنَ المُسْلِمِينَ .

ثُمَّ دَارَ الزَّمَانُ دَورَتَهُ ، فَدَفَعَتْ سُيُوفُ المُسْلِمِينَ فُلُولَ[1] الصَّلِيبِيِّينَ إِلَىٰ البَحْرِ ...

---

(١) الفلول : ما بقي منهم .

وَأَعَادَ أَبْنَاءُ صَلَاحِ الدِّينِ بِنَاءَ «عَسْقَلَانَ»، وَأَسْكَنُوهَا أَبْنَاءَهُمْ وَذَرَارِيَهُمْ[1]، وَظَلَّتْ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ أَنْ أَخَذَهَا مِنْهُمُ الْيَهُودُ، وَأَطْلَقُوا عَلَيْهَا اسْمَ «أَسْدُودَ».

وَالْمَدِينَةُ الْمَنْكُوبَةُ بِغُزَاتِهَا الْجُدُدِ تَنْتَظِرُ الْيَوْمَ الْقَائِدَ الْمُحَرِّرَ وَالْبَطَلَ الْمُنْقِذَ.

فَهَنِيئًا لِمَنْ سَيَكُونُ عَلَىٰ يَدَيْهِ الْخَلَاصُ.

* * *

(١) الذراري: الذرية من الأبناء.

يَوْمُ «عَيْنِ جَالُوتَ»

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[١]

سَنَةَ سِتِّمِائَةٍ وَثَمَانٍ وَخَمْسِينَ لِلْهِجْرَةِ. شَهِدَ الْعَالَمُ الإِسْلَامِيُّ يَوْماً مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ، أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَوَانٍ[٢]، وَقَوَّاهُمْ مِنْ ضَعْفٍ، وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ...

وَنَصَرَهُمْ عَلَىٰ عَدُوٍّ يَفُوقُهُمْ فِي الْعُدَّةِ، وَيَزِيدُ عَلَيْهِمْ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً فِي الْعَدَدِ.

---

(١) سورة التوبة: آية ٢٤.　　(٢) الهوان: الذل.

وَكَانَ بَطَلُ هَذَا اليَوْمِ شَابًّا نَشَأَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَأَخْلَصَ نَفْسَهُ لَهُ، وَعَقَدَ عَزْمَهُ عَلَىٰ نُصْرَةِ دِينِهِ، فَقَبِلَ اللَّهُ نِيَّتَهُ، وَشَدَّ أَزْرَهُ[1]، وَرَفَعَ ذِكْرَهُ، وَآثَرَهُ[2] بِيَوْمٍ عَظِيمٍ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ.

أَمَّا اليَوْمُ العَظِيمُ، فَهُوَ يَوْمُ «عَيْنِ جَالُوتَ»...

وَأَمَّا بَطَلُ هَذَا اليَوْمِ، فَهُوَ المَلِكُ المُظَفَّرُ سَيْفُ الدِّينِ قُطُزْ...

وَلِهَذَا اليَوْمِ الكَرِيمِ، وَلِبَطَلِهِ العَظِيمِ قِصَّةٌ مِنْ أَرْوَعِ قِصَصِ البُطُولَاتِ.

* * *

فَفِي مَطْلَعِ القَرْنِ السَّادِسِ الهِجْرِيِّ خَرَجَ مِنْ أَطْرَافِ «الصِّينِ» شَعْبٌ مُتَبَدٍّ يَعِزُّ[3] عَلَىٰ العَدِّ، وَيَسْتَعْصِي عَلَىٰ الحَصْرِ، وَهَبَّ عَلَىٰ البَشَرِيَّةِ هُبُوبَ الأَعَاصِيرِ...

---

(١) شد أزره: قواه.
(٢) آثره: أكرمه ومنحه دون غيره.
(٣) يعز عَلَىٰ العد: يتعذر إحصاؤه.

فَاجْتَاحَ المَمَالِكَ، وَأَدَالَ[1] الدُّوَلَ، وَأَبَادَ الجُيُوشَ، وَأَهْلَكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ.

فَقَدِ اسْتَطَاعَ فِي فَتْرَةٍ وَجِيزَةٍ أَنْ يَسْتَولِيَ عَلَىٰ الصِّينِ، وَكُورِيَا ... وَأَنْ يَجْتَاحَ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ بُلغَارْيَا، وَرُوسْيَا، وَالمَجَرَ، وَبُولُونْيَا ... وَأَنْ يُخْضِعَ - مِنْ جِهَةٍ ثَالِثَةٍ - تُركُسْتَانَ، وَسَمَرقَنْدَ، وَبُخَارَىٰ.

ثُمَّ ابْتَلَعَ فَوْقَ ذَلِكَ الرَّيَّ، وَهَمَذَانَ، وَبِلَادَ الجَبَلِ ... وَالْتَهَمَ سِجِسْتَانَ، وَكِرْمَانَ، وَغُزْنَةَ وَمَا جَاوَرَهَا مِنْ بِلَادِ الهِنْدِ، حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ عَلَىٰ ظَهْرِ الأَرْضِ شَعْبٌ إِلَّا كَانَ يَرتَجِفُ فُؤَادُهُ خَوفاً مِنْهُ، وَيَنْتَظِرُ أَنْ يَحِينَ حَيْنُهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ...

ذَلِكُمْ هُوَ شَعْبُ «التَّتَارِ» أَوْ شَعْبُ الدَّمَارِ.

* * *

لَكِنَّ هَذَا الشَّعْبَ أَنْزَلَ بِبِلَادِ المُسْلِمِينَ مِنَ الدَّمَارِ مَا لَمْ يُنْزِلْهُ بِبَلَدٍ سِوَاهَا ...

---

(١) أدال الدول: أزالها.

وَأَحَلَّ بِهَا مِنَ الهَوْلِ[1] مَا اقْشَعَرَّتْ لَهُ جُلُودُ المُؤَرِّخِينَ، وَارْتَجَفَتْ لِكِتَابَتِهِ أَقْلَامُهُمْ...

فَلَقَدْ وَصَفَ «السِّيرْ تُومَاسْ أَرْنُولْدُ» مَا قَامُوا بِهِ عِنْدَ غَزْوِهِمْ لِلدِّيَارِ الإِسْلَامِيَّةِ، فَقَالَ:

لَمْ يَعْرِفْ تَارِيخُ الإِسْلَامِ - عَلَىٰ كَثْرَةِ مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ الخُطُوبِ[2] - هَوْلاً أَشَدَّ مِنْ غَزَوَاتِ «التَّتَارِ»؛ فَقَدِ انْسَابَتْ جُيُوشُ «جِنْكِيزْ خَانَ» فِي بِلَادِ المُسْلِمِينَ انْسِيَابَ الثُّلُوجِ مِنْ قُنَنِ[3] الجِبَالِ...

وَاكْتَسَحَتْ فِي طَرِيقِهَا الحَوَاضِرَ الإِسْلَامِيَّةَ، وَأَتَتْ عَلَىٰ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ مَدَنِيَّةٍ وَثَقَافَةٍ...

وَلَمْ يَتْرُكُوا وَرَاءَهُمْ مِنْ تِلْكَ البِلَادِ سِوَىٰ خَرَائِبَ وَأَطْلَالٍ...

ثُمَّ أَتْبَعَ يَقُولُ:

---

(١) الهول: الخطر المرعب.
(٢) الخطوب: المصائب.
(٣) قنن الجبال: أعالي الجبال.

فَيَوْمَ مَرُّوا بِمَدِينَةِ « هَرَاةَ »[١] الزَّاهِرَةِ جَعَلُوهَا قَاعاً صَفْصَفاً ، وَحِينَ غَادَرُوهَا لَمْ يَخْرُجْ مِنْ سُكَّانِهَا غَيْرُ أَرْبَعِينَ رَجُلاً مِنْ أَهْلِيهَا مِنْ مَخَابِئِهِمْ ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ التُّعَسَاءُ هُمُ البَقِيَّةُ البَاقِيَةُ مِنْ سُكَّانِ المَدِينَةِ الَّذِينَ يَرْبُو[٢] عَدَدُهُمْ عَلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ ...

وَفِي مَدِينَةِ « بُخَارَىٰ » مَوْئِلِ أَهْلِ العِلْمِ وَالوَرَعِ وَالصَّلَاحِ ... مَزَّقَ « التَّتَارُ » المَصَاحِفَ وَفَرَشُوهَا تَحْتَ جِيَادِهِمْ فِي الإِصْطَبْلَاتِ لِتَكُونَ لَهَا وِطَاءً ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ قَتَلُوا الرِّجَالَ ، وَسَبَوُا النِّسَاءَ ، وَجَعَلُوا المَدِينَةَ العَرِيقَةَ أَثَراً بَعْدَ عَيْنٍ[٣].

* * *

لَكِنَّ النَّكْبَةَ الكُبْرَىٰ وَالدَّاهِيَةَ[٤] العُظْمَىٰ حَلَّتْ « بِبَغْدَادَ » ...

فَفِي شَهْرِ صَفَرٍ سَنَةَ سِتِّمِائَةٍ وَسِتٍّ وَخَمْسِينَ

---

(١) هراة : مدينة في شمال غربي أفغانستان قرب حدود إيران.

(٢) يربو : يزيد.

(٣) أثراً بعد عين : أصبحت مجرد أثر بعد أن كانت مدينة تملأ العيون بهاء.

(٤) الداهية العظمى : المصيبة.

سَقَطَتْ بَيْنَ بَرَاثِنِ «التَّتَارِ» عَاصِمَةُ الدُّنْيَا. وَقَاعِدَةُ الحَضَارَةِ، وَمَوْئِلُ الخِلَافَةِ، وَمَدِينَةُ المَنْصُورِ، وَالرَّشِيدِ[1]، وَالمُعْتَصِمِ[2]...

فَأَنْزَلوا فِي رُبُوعِهَا الشُّمِّ مَا تَشِيبُ لِهَوْلِهِ الوِلْدَانُ؛ حَيْثُ اسْتَبَاحُوا المَدِينَةَ العَرِيقَةَ أَرْبَعِينَ يَوْماً بِلَيَالِيهَا...

هَدَمُوا خِلَالَهَا القُصُورَ وَالدُّورَ، وَنَسَفُوا المَسَاجِدَ وَالجَوَامِعَ، وَأَحْرَقُوا المَكْتَبَاتِ وَالمَدَارِسَ، وَقَضَوْا عَلَىٰ المُسْتَشْفيَاتِ وَالرُّبُطِ...

وَأَعْمَلُوا السُّيُوفَ فِي الرِّقَابِ، حَتَّىٰ سَالَتِ الدِّمَاءُ فِي الأَزِقَّةِ أَنْهَاراً.

وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْهُمْ إِلَّا اليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ؛ فَقَدْ أَمَّنُوهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ مِنْ دُونِ النَّاسِ...

* * *

---

(١) الرشيد: أي هارون الرشيد انظره في كتاب «من سير أعلام الإسلام» للمؤلف.

(٢) المعتصم: صاحب وقعة عمورية انظر ص.

فَلَقَدْ كَانُوا يَسْتَدْعُونَ الرَّجُلَ مِنْ أَشْرَافِ « بَغْدَادَ » وَعُلَمَائِهَا ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ بِزَوْجَتِهِ وَأَبْنَائِهِ وَبَنَاتِهِ ...

فَيَتُلُّونَهُ لِلْجَبِينِ[1]، وَيَذْبَحُونَهُ ذَبْحَ الشَّاةِ ، وَيَسْبُونَ مَنْ يَصْطَفُونَ مِنْ بَنَاتِهِ ، وَيَقْتُلُونَ الآخَرِينَ ...

وَكَانَ فِي جُمْلَةِ مَنْ قَتَلُوهُ « المُسْتَعْصِمُ » خَلِيفَةُ المُسْلِمِينَ ، وَقَتَلُوا مَعَهُ وَلَدَيْهِ ، وَسَبَوْا بَنَاتِهِ الثَّلَاثَ فَاطِمَةَ وَخَدِيجَةَ وَمَرْيَمَ .

* * *

وَلَمَّا انْقَضَتِ الأَيَّامُ الأَرْبَعُونَ السُّودُ ، أَصْبَحَتْ « بَغْدَادُ » قَاعاً صَفْصَفاً ، لَا يَرْتَفِعُ عَلَىٰ مَنَائِرِهَا أَذَانٌ ، وَلَا يُتْلَىٰ فِي مَسَاجِدِهَا قُرْآنٌ ، وَلَا تُقَامُ فِي جَوَامِعِهَا جُمَعٌ ، وَلَا يَشِعُّ مِنْ مَدَارِسِهَا نُورٌ .

وَلَقَدِ اخْتَلَفَ المُؤَرِّخُونَ فِي عَدَدِ مَنْ قُتِلَ مِنْ أَهْلِهَا ، فَفَرِيقٌ قَالَ : إِنَّ القَتْلَىٰ أَلْفُ أَلْفٍ ، وَفَرِيقٌ قَالَ : إِنَّهُمْ أَلْفَا أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ .

---

(١) فيتلونه للجبين : يكبونه عَلَىٰ وجهه .

وَلَمَّا انْقَضَىٰ الأَمْرُ المُقَدَّرُ كَانَتْ أَجْسَادُ القَتْلَىٰ تَمْلأُ الطُرُقَاتِ كَأَنَّهَا التِّلَالُ ... ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ سَقَطَ عَلَيْهَا المَطَرُ فَتَغَيَّرَتْ صُورُهَا، وَأَنْتَنَتْ جِيَفُهَا، وَتَلَوَّثَ مِنْهَا الهَوَاءُ، وَانْتَشَرَ الوَبَاءُ[1]؛ فَتَعَدَّاهَا إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ، وَمَاتَ بِسَبَبِه خَلْقٌ كَثِيرٌ.

وَلَمَّا نُودِيَ بِالأَمَانِ فِي «بَغْدَادَ»، خَرَجَ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ مَنْ كَانُوا مُخْتَبِئِينَ بِالحُفَرِ وَالأَقْنِيَةِ وَالمَقَابِرِ، كَأَنَّهُمُ المَوْتَىٰ ...

فَأَنْكَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً؛ حَتَّىٰ إِنَّ الوَالِدَ لَمْ يَعْرِفْ وَلَدَهُ، وَأَنَّ الأَخَ لَمْ يَسْتَيْقِنْ مِنْ أَخِيهِ، ثُمَّ مَا لَبِثُوا أَنْ حَصَدَهُمْ الوَبَاءُ، فَلَحِقُوا بِمَنْ سَبَقَهُمْ إِلَىٰ القُبُورِ.

* * *

ثُمَّ دَفَعَ «التَّتَارُ» جُيُوشَهُمْ نَحْوَ بِلَادِ الشَّامِ، فَتَسَاقَطَتِ المُدنُ تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ كَمَا تَتَسَاقَطُ أَوْرَاقُ الشَّجَرِ فِي فَصْلِ الخَرِيفِ ...

---

(١) الوباء: المرض المنتشر من أي نوع. وكان وقتها هو الطاعون.

وَكَانَ الرُّعْبُ مِنْهُمْ يَمْشِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ؛ فَيُرْهِبُ السُّكَّانَ وَيَفْتَحُ الْبُلْدَانَ ؛ مِمَّا أَغْرَاهُمْ بِفَتْحِ «مِصْرَ» كِنَانَةِ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ، وَالْقَضَاءِ عَلَىٰ مَلِكِهَا سَيْفِ الدِّينِ قُطُزْ بَطَلِ مَعْرَكَةِ «عَيْنِ جَالُوتَ» .

فَتَعَالَوْا نَسْتَعْرِضْ قِصَّةَ حَيَاةِ هَذَا الْقَائِدِ الْمُجَاهِدِ الْفَذِّ مِنْ أَوَّلِهَا ...

* * *

كَانَ الْفَتَىٰ «مَحْمُودُ قُطُزْ» يَنْتَهِي بِنَسَبِهِ إِلَىٰ الْمُلُوكِ «الْخُوَارِزْمِيَّةِ» ، وَكَانَ «التَّتَارُ» قَدْ شَنُّوا عَلَيْهِمْ حَرْباً طَاحِنَةً فَامْتَلَكُوا دِيَارَهُمْ ، وَرَمَّلُوا نِسَاءَهُمْ ، وَسَبَوْا أَطْفَالَهُمْ ، وَكَانَ فِي جُمْلَةِ مَنْ سَبَوْهُ مَحْمُودُ قُطُزْ ...

ثُمَّ تَنَاقَلَتْهُ أَيْدِي النَّخَّاسِينَ ، حَتَّىٰ اشْتَرَاهُ رَجُلٌ مِنْ أَعْيَانِ «دِمَشْقَ» شُهِرَ بِالتَّقْوَىٰ وَالصَّلَاحِ ، وَعُرِفَ بِاهْتِمَامِهِ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ ... يَأْسَىٰ لِمَا أَصَابَهُمْ ، وَيَهْتَمُّ لِمَا أَهَمَّهُمْ .

* * *

وَقَدْ نَشَأَ الفَتَىٰ اليَافِعُ[1] فِي ظِلَالِ هَٰذَا السَّيِّدِ نَشْأَةً كَرِيمَةً صَالِحَةً، فَجَمَعَ إِلَىٰ ذَكَاءِ القَلْبِ، وَعُلُوِّ النَّفْسِ... صِدْقَ الإِيمَانِ، وَسُمُوَّ هِدَايَةِ الإِسْلَامِ...

وَكَانَ يَخْتَلِفُ[2] إِلَىٰ مَجَالِسِ شَيْخِ «دِمَشْقَ» الكَبِيرِ، وَمُرْشِدِهَا الجَلِيلِ، عَالِمِهَا العَامِلِ عِزِّ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ، فَيَجِدُ عِنْدَهُ العِلْمَ النَّافِعَ، وَالمَوْعِظَةَ الحَسَنَةَ...

وَكَانَ يَسْتَمِعُ فِي لَهْفَةٍ إِلَىٰ أَحَادِيثِهِ المَشْبُوبَةِ[3] بِالحَضِّ عَلَىٰ الجِهَادِ، وَالتَّرْغِيبِ فِي الاسْتِشْهَادِ، وَالإِزْرَاءِ عَلَىٰ حُكَّامِ المُسْلِمِينَ المُتَخَاذِلِينَ المُتَنَاحِرِينَ.

وَكَانَتْ دِيَارُ المُسْلِمِينَ إِذْ ذَاكَ تَتَعَرَّضُ لِغَزْوَيْنِ كَبِيرَيْنِ دَاهِمَيْنِ:

غَزْوٌ يَأْتِيهَا مِنَ الغَرْبِ عَلَىٰ أَيْدِي الصَّلِيبِيِّينَ المُتَعَصِّبِينَ...

---

(١) اليافع: من قارب البلوغ.
(٢) يختلف: يتردد.
(٣) المشبوبة: المتقدة.

وَغَزْوٌ يَأْتِيهَا مِنَ الشَّرْقِ عَلَىٰ أَيْدِي «التَّتَارِ» الوَثَنِيِّينَ.

وَقَدْ مَلَكَتْ أَحَادِيثُ الشَّيْخِ عَنِ الجِهَادِ وَالاسْتِشْهَادِ عَلَىٰ الشَّابِّ اليَقِظِ قَلْبَهُ وَلُبَّهُ...

ثُمَّ زَادَهُ وَلَعاً بِالأَمْرِ؛ أَنَّهُ رَأَىٰ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي المَنَامِ، وَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي كَوْكَبَةٍ مِنَ الفُرْسَانِ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِ جُمَّةٌ تَضْرِبُ فِي أُذُنَيْهِ؛ فَمَا إِنْ وَقَفَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ تَرَجَّلَ عَنْ فَرَسِهِ وَدَنَا مِنْهُ وَأَنْهَضَهُ بِقُوَّةٍ، وَضَرَبَ عَلَىٰ صَدْرِهِ وَقَالَ لَهُ:

قُمْ يَا مَحْمُودُ وَخُذْ هَذَا الطَّرِيقَ إِلَىٰ مِصْرَ...

فَسَتَمْلِكُهَا وَتَهْزِمُ التَّتَارَ.

* * *

عَرَضَ مَحْمُودٌ رُؤْيَاهُ عَلَىٰ شَيْخِهِ عِزِّ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ فَسُرَّ بِهَا وَقَالَ:

اللَّهُمَّ حَقِّقْ رُؤْيَا عَبْدِكَ مَحْمُودٍ، كَمَا حَقَّقْتَ رُؤْيَا عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ الصِّدِّيقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَمُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ طَمَحَتْ[1] نَفْسُ مَحْمُودٍ إِلَىٰ الرَّحِيلِ إِلَىٰ «مِصْرَ»، وَقَدْ زَادَهُ تَعَلُّقاً بِهَا رَحِيلُ شَيْخِهِ إِلَيْهَا... ذَلِكَ أَنَّ المَلِكَ الصَّالِحَ إِسْمَاعِيلَ ضَاقَ ذَرْعاً بِالشَّيْخِ لِأَنَّهُ كَانَ يُؤَلِّبُ[2] النَّاسَ عَلَيْهِ لِتَرْكِهِ الجِهَادَ، وَمُمَالأَتِهِ[3] لِأَعْدَاءِ اللَّهِ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ؛ فَنَفَاهُ عَنْ بِلَادِ الشَّامِ، وَحَمَلَهُ عَلَىٰ الرَّحِيلِ إِلَىٰ «مِصْرَ».

* * *

اسْتَأْذَنَ مَحْمُودٌ سَيِّدَهُ بِالمَسِيرِ إِلَىٰ أَرْضِ الكِنَانَةِ «مِصْرَ»؛ وَاللَّحَاقِ بِشَيْخِهِ؛ فَأَذِنَ لَهُ، ثُمَّ وَدَّعَهُ وَقَالَ:

لَا تَنْسَ الرُّؤْيَا الَّتِي رَأَيْتَهَا يَا مَحْمُودُ...

فَإِنَّ مَنْ رَأَىٰ الرَّسُولَ ﷺ فِي المَنَامِ، فَقَدْ رَآهُ حَقًّا.

* * *

الْتَحَقَ مَحْمُودٌ بِخِدْمَةِ حُكَّامِ «مِصْرَ»، وَطَفِقَ

(١) طمحت نفسه إلَىٰ كذا: تطلع إليه، وعمل عَلَىٰ نيله.
(٢) يؤلب: يحرض النَّاس عليه. (٣) الممالأة: الميل والعون.

يُبْدِي مِنْ ضُرُوبِ الشَّجَاعَةِ، وَيُظْهِرُ مِنْ صُنُوفِ الحِكْمَةِ وَالحِنْكَةِ مَا مَهَّدَ السَّبِيلَ أَمَامَهُ لِيَغْدُوَ قَائِداً كَبِيراً مِنْ قُوَّادِ الجَيْشِ، ثُمَّ نَائِباً لِلسُّلْطَانِ...

ثُمَّ مَلِكاً لِمِصْرِ حَيْثُ لُقِّبَ:

«بِالمَلِكِ المُظَفَّرِ سَيْفِ الدِّينِ قُطُزْ».

* * *

مَا كَادَ المَلِكُ المُظَفَّرُ يَسْتَقِرُّ عَلَىٰ عَرْشِ البِلَادِ، حَتَّىٰ أَرْسَلَ إِلَيْهِ مَلِكُ التَّتَارِ «هُولَاكُو» رِسَالَةً مَعَ خَمْسَةٍ مِنْ رِجَالِهِ جَاءَ فِيهَا:

«مِنْ مَلِكِ المُلُوكِ شَرْقاً وَغَرْباً القَائِدِ الأَعْظَمِ...

إِلَىٰ المَلِكِ المُظَفَّرِ، وَسَائِرِ أُمَرَاءِ دَوْلَتِهِ بِالدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ...

إِنَّ لَكُمْ بِسَائِرِ البِلَادِ مُعْتَبَراً[1]، وَعَنْ عَزْمِنَا مُزْدَجَراً[2]، فَاتَّعِظُوا بِغَيْرِكُمْ، وَأَسْلِمُوا إِلَيْنَا أَمْرَكُمْ[3]...

(١) معتبر: عبرة وموعظة.
(٢) مزدجر: ما يمنعكم من محاربتنا.
(٣) أسلموا إلينا أمركم: أسلموا إلينا قيادكم.

وَقَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّنَا فَتَحْنَا البِلَادَ، وَطَهَّرنَا الأَرْضَ مِنَ الفَسَادِ، فَعَلَيْكُمْ بِالهَرَبِ، وَعَلَيْنَا بِالطَّلَبِ...

فَخُيُولُنَا سَوَابِقُ، وَسِهَامُنَا خَوَارِقُ، وَسُيُوفُنَا صَوَاعِقُ، وَقُلُوبُنَا كَالجِبَالِ، وَعَدَدُنَا كَالرِّمَالِ ...»

* * *

جَمَعَ المَلِكُ المُظَفَّرُ أُمَرَاءَهُ، وَشَاوَرَهُمْ فِي الأَمْرِ... فَأَجْمَعُوا رَأْيَهُمْ عَلَىٰ مُلَاقَاةِ الْعَدُوِّ...

فَأَمَرَ بِقَتْلِ رُسُلِ «هُولَاكُو» الخَمْسَةِ، وَعَلَّقَ رُؤُوسَهُمْ عَلَىٰ «بَابِ زُوَيْلَةَ»(١)، وَقَامَ يَسْتَعِدُّ لِلْحَرْبِ عَلَىٰ قَدَمٍ وَسَاقٍ.

غَيْرَ أَنَّهُ رَأَىٰ هَلَعَ(٢) النَّاسِ مِنَ «التَّتَارِ»، وَخَوْفَهُمْ مِنْ أَنْ يَصِيرُوا هُمْ وَمُدُنُهُمْ إِلَىٰ مَا صَارَتْ إِلَيْهِ «بَغْدَادُ»...

---

(١) باب زويلة: أحد أبواب القاهرة الفاطمية. هو الآن في نهاية سوق الغورية «شارع السلطان الغوري» من جهة الدرب الأحمر. ويسمى «بوابة المتولي».

(٢) الهلع: الخوف والرعب.

فَهَبَّ يُعَالِجُ الأَمْرَ بِإِيقَادِ جَذْوَةِ[1] الإِيمَانِ فِي النُّفُوسِ، وَالعَوْدَةِ بِالنَّاسِ إِلَىٰ اللَّهِ...

فَأَنْشَأَ دِيوَاناً لِلْجِهَادِ، وَأَوْكَلَ أَمْرَهُ إِلَىٰ شَيْخِهِ وَشَيْخِ المُسْلِمِينَ عِزِّ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ.

* * *

اعْتَمَدَ عِزُّ الدِّينِ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ عَلَىٰ المَسْجِدِ فِي إِيقَاظِ القُلُوبِ الغَافِيَةِ، وَشَحْذِ الهِمَمِ الوَانِيَةِ[2]؛ فَجَمَعَ خُطَبَاءَ المَسَاجِدِ، وَلَقَّنَهُمْ[3] مَا يَجِبُ أَنْ يَخْطُبُوا بِهِ عَلَىٰ المَنَابِرِ، وَحَضَّهُمْ عَلَىٰ دَعْوَةِ النَّاسِ إِلَىٰ الجِهَادِ، وَتَرْغِيبِهِمْ فِي الاسْتِشْهَادِ...

وَأَصْبَحَ لَا يُجِيزُ[4] أَحَداً مِنْ هَؤُلَاءِ الخُطَبَاءِ حَتَّىٰ يَحْفَظَ سُورَتَي الأَنْفَالِ وَالتَّوْبَةِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ.

وَكَانَ مِنْ آثَارِ ذَلِكَ أَنْ غَدَتِ المَنَابِرُ وَالبُيُوتُ،

---

(١) الجذوة: الجمرة الملتهبة.
(٢) شحذ الهمم الوانية: قوىٰ الهمم الضعيفة وأثارها.
(٣) لقنهم: علمهم ما يقولون. (٤) لا يجيز: لا يأذن.

وَالأَسْوَاقُ تَعُجُّ بِآيَاتِ القِتَالِ ، حَتَّىٰ كَادَ العَامَّةُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالأَطْفَالِ يَسْتَظْهِرُونَهَا حِفْظاً .

* * *

وَلَقَدْ غَمَرَ الشُّعُورُ الدِّينِيُّ الرَّائِعُ سَائِرَ النُّفُوسِ ، وَشَمِلَ جَمِيعَ الفِئَاتِ ، فَكَفَّ الفَسَقَةُ عَنِ ارْتِكَابِ المَعَاصِي ، وَامْتَنَعَ المُدْمِنُونَ عَنْ شُرْبِ الخُمُورِ ...

وَآبَ[١] النَّاسُ إِلَىٰ اللّٰهِ ، وَامْتَلأَتِ المَسَاجِدُ بِالرُّكَّعِ السُّجُودِ ...

وَلَمْ يَبْقَ لِلنَّاسِ مِنْ حَدِيثٍ غَيْرِ الحَدِيثِ عَنْ لِقَاءِ عَدُوِّ اللّٰهِ وَعَدُوِّهِمْ .

* * *

مَا كَادَ المَلِكُ المُظَفَّرُ يَسْتَكْمِلُ اسْتِعْدَادَاتِهِ العَسْكَرِيَّةَ حَتَّىٰ جَاءَتْهُ الأَخْبَارُ بِتَحَرُّكِ « التَّتَارِ » نَحْوَ بِلَادِهِ لِيَنْتَقِمُوا مِنْهُ عَلَىٰ مَا فَعَلَ ، وَلِيَسْتَبِيحُوا دِيَارَهُ كَمَا اسْتَبَاحُوا « بَغْدَادَ » مِنْ قَبْلُ ...

---

(١) آب الناس : رجعوا .

فَنَادَىٰ فِي النَّاسِ إِلَىٰ الجِهَادِ ؛ فَلَبَّوْا نِدَاءَهُ خِفَافاً وَثِقَالاً ، وَشِيباً وَشَبَابًا ... وَآلَوا[1] عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَظْفَرُوا بِإِحْدَىٰ الحُسْنَيَيْنِ : النَّصْرِ أَوِ الشَّهَادَةِ .

* * *

وَفِي صَبَاحِ الجُمُعَةِ لِخَمْسٍ بَقِينَ[2] مِنْ رَمَضَانَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ الْتَقَىٰ الجَمْعَانِ فِي « عَيْنِ جَالُوتَ » الوَاقِعَةِ بَيْنَ بَيْسَانَ وَنَابُلُسَ ...

فَأَخَذَتْ سِهَامُ « التَّتَارِ » تَنْصَبُّ عَلَىٰ رُؤُوسِ المُسْلِمِينَ انْصِبَاباً ...

فَتُمَزِّقُ صُفُوفَهُمْ ، وَتُفَرِّقُ جُمُوعَهُمْ ، وَتَشُلُّ حَرَكَتَهُمْ .

وَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الكَرْبُ ؛ أَمَرَهُمُ السُّلْطَانُ بِالهُجُومِ عَلَىٰ عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّهِمْ ...

فَتَصَافَحَتِ السُّيُوفُ مَعَ السُّيُوفِ ...

---

(١) آلوا عَلَىٰ أنفسهم : أي أقسموا .
(٢) لخمس بقين من رمضان : أي في اليوم الخامس والعشرين فيه .

وَاشْتَجَرَتِ[1] الرِّمَاحُ مَعَ الرِّمَاحِ...

وَاسْتَحَرَّ القَتْلُ بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ وَاسْتَبْسَلَ كُلٌّ مِنْهُمَا غَايَةَ الِاسْتِبْسَالِ.

وَلَمَّا رَأَىٰ المَلِكُ المُظَفَّرُ شِدَّةَ بَأْسِ عَدُوِّهِ، وَوَفْرَةَ عَدَدِهِ، وَكَثْرَةَ عُدَدِهِ خَلَعَ خُوذَتَهُ عَنْ رَأْسِهِ، وَأَلْقَىٰ بِهَا عَلَىٰ الأَرْضِ، وَرَدَّدَ بِصَوتِهِ الأَجَشِّ قَوْلَهُ:

وَا إِسْلَامَاهُ... وَا إِسْلَامَاهُ.

فَأَلْهَبَ قُلُوبَ جُنُودِهِ بِنَارِ الإِيمَانِ، وَأَضْرَمَ[2] أَفْئِدَتَهُمْ بِالحَمِيَّةِ لِلإِسْلَامِ...

فَانقَضُّوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ انقِضَاضَ الشُّهُبِ، وَمَا زَالُوا يُنَاضِلُونَهُ حَتَّىٰ خَلْخَلُوا صُفُوفَهُ المُتَرَاصَّةَ...

وَأَوْغَلُوا فِي جُمُوعِهِ المُحْتَشِدَةِ...

فَأَلْقَىٰ اللَّهُ الوَهَنَ فِي نُفُوسِ «التَّتَارِ»، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ...

---

(١) اشتجرت: اشتبكت.   (٢) أضرم: أوقد.

وَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ وَبَعْضُ السَّاعَةِ ؛ حَتَّىٰ بَدَأَ الْعَدُوُّ يَتَأَخَّرُ...

ثُمَّ طَفِقَ يَتَقَهْقَرُ...

ثُمَّ وَلَّىٰ الدُّبُرَ...

فَرَكِبَ الْمُسْلِمُونَ ظُهُورَهُمْ، وَأَعْمَلُوا السُّيُوفَ فِي رِقَابِهِمْ، وَمَزَّقُوهُمْ شَرَّ مُمَزَّقٍ.

* * *

وَبَعْدُ...

فَلَقَدْ كَانَ يَوْمُ «عَيْنِ جَالُوتَ» أَوَّلَ يَوْمٍ يُغْلَبُ فِيهِ الْغَالِبُونَ، وَيُقْهَرُ فِيهِ الْقَاهِرُونَ...

ثُمَّ لَمْ تَقُمْ لَهُمْ قَائِمَةٌ بَعْدَ ذَٰلِكَ...

وَكَانَ الْمَمْلُوكُ سَيْفُ الدِّينِ قُطُزْ أَوَّلَ رَجُلٍ أَذَلَّ «هُولَاكُو» الْجَبَّارَ...

وَكَانَ الإِسْلَامُ وَمَا يَزَالُ عُدَّةَ النَّصْرِ لِلْمُسْلِمِينَ. وَسَبِيلَ الْعِزَّةِ لِلْمُؤْمِنِينَ.

وَصَدَقَ اللَّهُ العَظِيمُ إِذْ يَقُولُ:

﴿اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١]

* * *

(١) سورة آل عمران: آية ٢٦.

تَحْرِيرُ أَنْطَاكِيَّةَ *

فِي رَمَضَانَ سَنَةَ سِتِّمِائَةٍ وَسِتٍّ وَسِتِّينَ وَفِي الْيَوْمِ الرَّابِعَ عَشَرَ مِنْهُ ، شَهِدَ تَارِيخُ الإِسْلَامِ يَوْماً مِنْ أَعْظَمِ أَيَّامِهِ ، وَفَتْحاً مِنْ أَجَلِّ فُتُوحِهِ ...

أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ هَوَانٍ ، وَأَعْلَىٰ فِيهِ رَايَاتِ الإِسْلَامِ ، وَرَفَعَ أَعْلَامَ الْقُرْآنِ .

وَكَانَ صَاحِبُ هَذَا الْفَتْحِ الْعَظِيمِ بَطَلاً مِنْ أَبْطَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَائِداً مِنْ قُوَّادِهِمُ الْغُرِّ الْمَيَامِينِ(1) ...

بَطَلٌ ظَلَّ عَلَىٰ مَدَىٰ سَبْعَةَ عَشَرَ عَاماً يُشَرِّقُ فِي أَرْضِ الْمُسْلِمِينَ وَيُغَرِّبُ ...

(*) مدينة في تركيا بناها سلقوس سنة ٣٠٠ ق.م عاصمة له ، وأصبحت ثالث مدن الإمبراطورية الرومانية .

(١) الغر : جمع أغر ، وهو كريم الأفعال ، والميامين : جمع ميمون أي ذو اليمن والبركة .

يُنَازِلُ «التَّتَارَ» الوَثَنِيِّينَ، وَيُقَارِعُ الصَّلِيبِيِّينَ البَاغِينَ...

فَمَا فُلَّ لَهُ سَيْفٌ، وَلَا لَانَتْ لَهُ قَنَاةٌ[1]، وَلَا انْكَسَرَ فِي مَوْقِعَةٍ، حَتَّىٰ أَلْقَىٰ اللَّهُ مَهَابَتَهُ وَرُعْبَهُ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِ وَأَعْدَاءِ اللَّهِ.

هَذَا البَطَلُ هُوَ المَلِكُ «الظَّاهِرُ بِيبَرْسُ»...

أَمَّا يَوْمُهُ البَاقِي عَلَىٰ وَجْهِ الدَّهْرِ فَهُوَ يَوْمُ فَتْحِ «أَنْطَاكِيَةَ»، وَاسْتِنْقَاذِهَا مِنْ أَيْدِي الصَّلِيبِيِّينَ...

* * *

وَلِأَنْطَاكِيَةَ وَيَوْمِهَا المَشْهُودِ قِصَّةٌ طَوِيلَةٌ...

تَبْدَأُ هَذِهِ القِصَّةُ مُنْذُ أَوَاخِرِ القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْرِيِّ؛ حَيْثُ بَدَأَ مِيزَانُ القُوَىٰ بَيْنَ «أُورُبَّا» النَّصْرَانِيَّةِ وَالشَّرْقِ المُسْلِمِ يَمِيلُ لِمَصْلَحَةِ «أُورُبَّا»؛ فَلَمْ يُضِعِ الأُورُبِّيُّونَ هَذِهِ الفُرْصَةَ الذَّهَبِيَّةَ السَّانِحَةَ.

---

(١) القناة: الرمح، ولا لانت له قناة: أي ما غلب.

فَهَبَّ الفَارِسُ «النُّورمَانْدِيُّ» الطَّامِعُ فِي الأَسْلَابِ...

وَالتَّاجِرُ البُنْدُقِيُّ المُتَطَلِّعُ إِلَىٰ نَفَائِسِ الشَّرْقِ...

وَالمُرَابِي الفُلُورَنْسِيُّ المُنْدَفِعُ وَرَاءَ الثَّرْوَةِ...

وَالفَرَنْسِيُّ الهَارِبُ مِنَ المَجَاعَةِ وَالطَّاعُونِ...

وَالمُتَدَيِّنُ المَهْوُوسُ التَّائِقُ[1] إِلَىٰ رَشْفَةٍ مِنْ مَاءِ الأَرْدُنِّ، أَوْ لَمْسَةٍ مِنْ جُدْرَانِ كَنِيسَةِ القِيَامَةِ...

هَبَّ هَؤُلَاءِ جَمِيعاً، يُلَبُّونَ دَعْوَةَ البَابَا «إِرْبَانَ» الثَّانِي إِلَىٰ الحُصُولِ عَلَىٰ الغُفْرَانِ إِذَا هُمْ خَلَّصُوا قَبْرَ المَسِيحِ مِنْ أَيْدِي المُسْلِمِينَ...

وَاتَّجَهُوا نَحْوَ الشَّرْقِ الإِسْلَامِيِّ، وَقَدْ خَاطُوا الصَّلِيبَ عَلَىٰ أَكْتَافِهِمُ اليُمْنَىٰ...

فَفَتَحَ «البِيزَنْطِيُّونَ» حُكَّامُ «الآسْتَانَةِ»[2] الطَّرِيقَ

---

(١) التائق: المشتهي.
(٢) الآستانة: مدينة تركية وهي أستنبول أو القسطنطينية.

أَمَامَهُمْ؛ فَانْدَفَعُوا كَالسَّيْلِ لَا يَقِفُ فِي وَجْهِهِ شَيْءٌ وَلَا تَصُدُّهُ عَنْ غَايَتِهِ قُوَّةٌ.

* * *

وَفِي سَنَةِ إِحْدَىٰ وَتِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ لِلْهِجْرَةِ وَصَلَ الصَّلِيبِيُّونَ إِلَىٰ «أَنْطَاكِيَةَ» أَوَّلِ قَلْعَةٍ مِنْ قِلَاعِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَعْظَمِ حِصْنٍ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ «البِيزَنْطِيِّينَ»؛ فَنَهَدَ لَهُمْ وَالِيهَا بِجَيْشِهِ، وَقَارَعَهُمْ[1] دُونَهَا مَا وَسِعَهُ الجَهْدُ؛ وَلَكِنْ أَنَّىٰ لَهُ أَنْ يَنْتَصِرَ وَسَيْفُهُ كَانَ لَا يَزَالُ يَقْطُرُ مِنْ دِمَاءِ إِخْوَتِهِ وَبَنِي عُمُومَتِهِ.

وَسَقَطَتِ المَدِينَةُ فِي أَيْدِي الصَّلِيبِيِّينَ وَتَكَوَّنَتْ مِنْهَا وَمِمَّا حَوْلَهَا أَوَّلُ إِمَارَةٍ لِلصَّلِيبِيِّينَ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ...

وَدُعِيَتْ هَذِهِ الإِمَارَةُ بِاسْمِ إِمَارَةِ «الرُّهَا» أَوْ إِمَارَةِ «أَنْطَاكِيَةَ».

* * *

(١) قارعهم: ضاربهم وحاربهم.

لَقَدْ نَزَلَ سُقُوطُ المَدِينَةِ العَظِيمَةِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ نُزُولَ الصَّاعِقَةِ، فَقَامَتِ الشُّعُوبُ الإِسْلَامِيَّةُ فِي كُلِّ مَكَانٍ تُلِحُّ عَلَىٰ حُكَّامِهَا المُتَصَارِعِينَ المُتَنَازِعِينَ فِي أَنْ يُرسِلُوا جُيُوشَهُمْ لِاسْتِنْقَاذِ «أَنْطَاكِيَّةَ» مِنْ أَيْدِي الصَّلِيبِيِّينَ...

فَأَذْعَنَ الحُكَّامُ لِرَغْبَةِ الشُّعُوبِ، وَأَرْسَلُوا طَائِفَةً مِنْ جُيُوشِهِمْ لِتَحْرِيرِ المَدِينَةِ المَنْكُوبَةِ فَحَاصَرَتْهَا الجُيُوشُ الإِسْلَامِيَّةُ حِصَاراً شَدِيداً، مِمَّا جَعَلَ الصَّلِيبِيِّينَ يَذُوقُونَ العَذَابَ أَلْوَاناً، وَيَتَجَرَّعُونَ الشَّقَاءَ صُنُوفاً حَتَّىٰ فَتَكَ[1] بِهِمُ الجُوعُ فَأَكَلُوا لَحْمَ المِيتَةِ.

وَشَاءَ أَحَدُ القَسَاوِسَةِ أَنْ يَشُدَّ مِنْ عَزْمِ الصَّلِيبِيِّينَ المُحَاصَرِينَ، فَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ أَحَدَ القِدِّيسِينَ أَبْلَغَهُ أَنَّ الْحَرْبَةَ الَّتِي طُعِنَ بِهَا السَّيِّدُ المَسِيحُ مَدْفُونَةٌ فِي مَوضِعٍ مِنْ «أَنْطَاكِيَّةَ»، وَأَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْبِشُوهَا مِنَ الأَرْضِ وَأَنَّ القِدِّيسِينَ سَيُحَارِبُونَ مَعَهُمْ.

---

(١) فتك: بطش بهم وأضعفهم ضعفاً شديداً.

نَبَشَ الصَّلِيبِيُّونَ الأَرْضَ فَأَخْرَجُوا الحَرْبَةَ المُزَيَّفَةَ المَدْسُوسَةَ، فَجُنَّ جُنُونُهُمْ فَرَحاً بِهَا...

وَانْدَفَعُوا يُقَاتِلُونَ الْمُسْلِمِينَ قِتَالَ المُسْتَمِيتِينَ حَتَّىٰ فَكُّوا عَنْ أَنْفُسِهِمُ الحِصَارَ، وَرَسَخَتْ أَقْدَامُهُمْ فِي المَدِينَةِ العَظِيمَةِ.

* * *

وَمُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ المَشْؤُومِ غَدَتْ إِمَارَةُ «أَنْطَاكِيَّةَ» مُنْطَلَقاً لِلصَّلِيبِيِّينَ، وَطَرِيقاً إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ، وَشَجًى[1] فِي حُلُوقِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَذًى فِي عُيُونِ سُكَّانِ «حَلَبَ»[2] وَمَا جَاوَرَهَا مِنْ بِلَادِ الشَّامِ.

وَبَقِيَ الأَمْرُ عَلَىٰ هَذَا الحَالِ مَا يُقَارِبُ قَرْنَيْنِ مِنَ الزَّمَانِ؛ ظَهَرَ خِلَالَهُمَا قَائِدَانِ كَبِيرَانِ مِنْ أَعْظَمِ قُوَّادِ الْمُسْلِمِينَ هُمَا:

المَلِكُ العَادِلُ المُجَاهِدُ نُورُ الدِّينِ زِنْكِي...

---

(١) الشجىٰ: الشوك.

(٢) حلب: مدينة في شمال سوريا.

وَالبَطَلُ الفَاتِحُ المُظَفَّرُ صَلَاحُ الدِّينِ الأَيُّوبِيُّ ...

لَكِنَّ أَيًّا مِنَ القَائِدَيْنِ الكَبِيرَيْنِ لَمْ يُكْتَبْ لَهُ فَتْحُ المَدِينَةِ العَظِيمَةِ.

* * *

بَقِيَتْ «أَنْطَاكِيَةُ» تَنْتَظِرُ اليَوْمَ العَظِيمَ وَالفَاتِحَ العَظِيمَ، حَتَّىٰ كَانَ هَذَا اليَوْمُ يَوْمَ الرَّابِعَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةَ سِتٍّ وَسِتِّينَ وَسِتِّمِائَةٍ ...

وَكَانَ هَذَا الفَاتِحُ هُوَ الظَّاهِرُ بِيبَرْسُ.

لَمْ يَعْمَدِ المَلِكُ الظَّاهِرُ إِلَىٰ فَتْحِ «أَنْطَاكِيَةَ» إِلَّا بَعْدَ أَنْ وَطَّدَ[1] مُلْكَهُ وَعَزَّزَ جَيْشَهُ، وَفَتَحَ كُلًّا مِنْ قَيْسَارِيَّةَ، وَصَفَدَ، وَطَبَرِيَّةَ، وَالجُولَانَ، وَيَافَا ...

وَالقُصَيرَ، وَعَكَارَ، وَصَافِيتَا، وَغَيْرَهَا وَغَيْرَهَا ...

فَخَضَدَ[2] شَوْكَةَ «التَّتَارِ»، وَقَطَّعَ أَوْصَالَ الصَّلِيبِيِّينَ، وَغَدَتِ الفُرْصَةُ سَانِحَةً أَمَامَهُ.

* * *

(١) وطد ملكه: ثبت أركان ملكه. (٢) خضد: قطع شوكته.

جَمَعَ « بِيبَرْسُ » جَمْهَرَةَ جُنُودِهِ فِي بِلَادِ الشَّامِ ...

أَتَىٰ بِهِمْ مِنْ « مِصْرَ » وَمِنَ « المَوْصِلِ » وَمِنَ « الحِجَازِ » وَمِنْ كُلِّ مَكَانٍ ...

وَاسْتَقْدَمَ المَجَانِيقَ مِنْ « دِمَشْقَ » وَحَمَلَهَا عَلَىٰ ظُهُورِ الجِمَالِ ، فَلَمَّا نَاءَتِ[1] الجِمَالُ بِهَا ، حَمَلَهَا الْأُمَرَاءُ وَالأَجْنَادُ وَالقُوَّادُ عَلَىٰ الرِّقَابِ ...

وَأَخَذَ السُّلْطَانُ نَفْسُهُ يَعْمَلُ فِي جَرِّ الأَخْشَابِ مَعَ البَقَرِ كَمَا يَقُولُ المُؤَرِّخُونَ ...

وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ هَذَا الجَيْشِ اللَّجِبِ رَجُلٌ وَاحِدٌ يَعْلَمُ إِلَىٰ أَيْنَ المَسِيرُ .

وَدَبَّ الرُّعْبُ فِي قُلُوبِ حُكَّامِ الإِمَارَاتِ الصَّلِيبِيَّةِ البَاقِيَةِ فِي أَرْضِ المُسْلِمِينَ ؛ فَكَانَ كُلٌّ مِنْهُمْ يَحْسَبُ أَنَّ الضَّرْبَةَ مُوَجَّهَةٌ إِلَيْهِ ...

فَأَرْسَلُوا وُفُودَهُمْ تَعْرِضُ عَلَىٰ المَلِكِ الظَّاهِرِ الهُدْنَةَ

---

(١) ناءت بها : ثقلت عليها .

وَدَفْعَ الجِزْيَةِ[1] فَقَبِلَ مُهَادَنَةَ أَكْثَرِهِمْ ، وَاسْتَنْكَفَ[2] عَنْ مُهَادَنَةِ بَعْضِهِمْ ... وَكَانَ وَفْدُ « أَنطَاكِيَّةَ » بَيْنَ الَّذِينَ رُدُّوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ خَائِبِينَ .

وَبِذَلِكَ تمَكَّنَ الدَّاهِيَةُ المُحَارِبُ مِنَ التَّفَرُّدِ بِفَرِيسَتِهِ ، وَضَمِنَ لِنَفْسِهِ وَلِجَيْشِهِ أَنْ يُنَازِلَهَا وَحِيدَةً مِنْ غَيْرِ مُعِينٍ ... مَعْزُولَةً مِنْ غَيْرِ سَنَدٍ .

* * *

لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الاِسْتِعْدَادُ كُلُّهُ عَبَثاً[3] ؛ « فَأَنْطَاكِيَّةُ » مَدِينَةٌ مِنْ أَعْظَمِ مُدُنِ العَالَمِ مَنَاعَةً ؛ لَهَا سُورٌ مُمَرَّدٌ طُولُهُ اثْنَا عَشَرَ مِيلاً ...

وَعَلَىٰ هَذَا السُّورِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ بُرْجاً ، وَفِي هَذِهِ الأَبْرَاجِ عِشْرُونَ أَلْفَ شُرْفَةٍ يَطُوفُ[4] عَلَيْهَا كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ أَرْبَعَةُ آلَافِ حَارِسٍ عَلَىٰ التَّنَاوُبِ .

* * *

---

(١) الجزية : ما يدفعه أهل الذمة للمسلمين من ضريبة .
(٢) استنكف : أبىٰ أن يهادنهم .
(٣) عبثاً : باطلاً أو هباء . (٤) يطوف عليها : يدور .

وَبَلَغَ الجَيْشُ العَظِيمُ مَشَارِفَ الْمَدِينَةِ فِي غُرَّةِ[1] رَمَضَانَ ...

وَانْطَلَقَ الجُنُودُ الْمُسْلِمُونَ فِي صَبِيحَتِهِ الْمُبَارَكَةِ ؛ لِيُؤَدُّوا فَرِيضَةَ الجِهَادِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللّٰهِ وَهُمْ يُؤَدُّونَ فَرِيضَةَ الصِّيَامِ طَاعَةً لِلّٰهِ .

وَالْتَحَمَ جُنْدُ اللّٰهِ مَعَ جُنْدِ الشَّيْطَانِ فِي مَعَارِكَ حَامِيَةِ الوَطِيسِ دَامَتْ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ مُتَوَالِيَاتٍ .

* * *

وَفِي غُرَّةِ الرَّابِعَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ ، دَخَلَتْ جُيُوشُ الْمُسْلِمِينَ المَدِينَةَ الحَصِينَةَ بَعْدَ أَنْ خَضَعَتْ لِلصَّلِيبِيِّينَ مَا يُقَارِبُ قَرْنَيْنِ مِنَ الزَّمَانِ ...

وَأَنْزَلَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ فَوْقِ بُرُوجِهَا رَايَةَ الصَّلِيبِ ، وَرَفَعُوا مَكَانَهَا رَايَاتُ الإِسْلَامِ ...

وَسُمِعَتْ مِنْ فَوْقِ شُرُفَاتِهَا أَصْوَاتُ الْمُؤَذِّنِينَ بَعْدَ

---

(١) الغرة من كل شيء : أوله وطلعته ، وغرة رمضان : أول رمضان .

أَنْ كَانَتْ تُجَلْجِلُ[1] عَلَيْهَا دَقَّاتُ النَّوَاقِيسِ[2].

وَغَنِمَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ «أَنْطَاكِيَّةَ» مَغَانِمَ لَا تُقَدَّرُ، وَغَرِمَ[3] الصَّلِيبِيُّونَ مَغَارِمَ لَا تُحْصَىٰ.

فَقَدْ ذَكَرَ الْمُؤَرِّخُونَ أَنَّ عَدَدَ قَتْلَىٰ الصَّلِيبِيِّينَ وَأَسْرَاهُمْ قَدْ زَادَ عَلَىٰ أَرْبَعِينَ أَلْفاً.

وَزُفَّتِ الْبَشَائِرُ بِالنَّصْرِ الْعَظِيمِ إِلَىٰ كُلِّ بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَامَتِ الأَفْرَاحُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَنُصِبَتِ الزِّينَاتُ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ، وَدُقَّتِ الطُّبُولُ فِي كُلِّ بَلَدٍ.

فَطُوبَىٰ لِلشُّهَدَاءِ الصَّائِمِينَ الَّذِينَ فَاضَتْ أَرْوَاحُهُمْ عِنْدَ أَسْوَارِ «أَنْطَاكِيَّةَ» وَأَيْدِيهِمْ مَشْدُودَةٌ عَلَىٰ مَقَابِضِ السُّيُوفِ...

وَشَرْبَةٌ مِنْ مَاءِ الْكَوْثَرِ[4] لِلْعِطَاشِ الَّذِينَ مَاتُوا وَفِي

---

(١) تجلجل: تعلو بصوتها.
(٢) النواقيس: الأجراس.
(٣) غرم: خسر.
(٤) ماء الكوثر: ماء نهر في الجنة.

أَكْبادِهِمْ ظَمَأٌ إِلَىٰ المَاءِ لَا يَفُوقُهُ إِلَّا ظَمَؤُهُمْ إِلَىٰ الشَّهَادَةِ .

* * *

الفِهْرِس

مَوْلِدُ عَالَمٍ جَدِيدٍ ٧
أَعْظَمُ مُؤْتَمَرٍ لِلشُّورَىٰ عَرَفَهُ تَارِيخُ الإِسْلَامِ ٢٣
مَصْرَعُ أَبِي جَهْلٍ ٣٧
هَدْمُ الأَصْنَامِ ٥١
إِسْلَامُ بَنِي ثَقِيفٍ ٦٩
وَقْعَةُ عَمُّورِيَّةَ ٨٥
سُقُوطُ المَسْجِدِ الأَقْصَىٰ بِأَيْدِي الصَّلِيبِيِّينَ ١٠٣
هَدْمُ مَدِينَةِ عَسْقَلَانَ ١١٩
يَوْمُ عَيْنِ جَالُوتَ ١٣٥
تَحْرِيرُ أَنْطَاكِيَةَ ١٥٥

* * *

كتب للمؤلف

- نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد .
- شعر الطَّرد «إلى نهاية القرن الثالث الهجري» .
- علي بن الـجَهْم «حياته وشعره» .
- صور من حياة الصحابة .
- صور من حياة الصحابيات .
- صور من حياة التَّابعين .
- الدِّين القيم .
- أرض البطولات .
- البطولة .
- الصَّيد عند العرب «أدواته وطرقه ـ حيوانه الصائِد والمصِيد» .

* * *